السياق القرآني
وأثره في التفسير

إعداد الدكتور

أحمد ماهر سعيد نصر

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات

أحمد ماهر سعيد نصر.
قسم التفسير وعلوم القرآن ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالسادات، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: ahmadnasr.adv@azhar.edu.eg

الملخص

يدور هذا البحث حول السياق القرآني وأهميته وآثاره في التفسير، ويهدف إلى إبراز أهمية السياق القرآني كأصل عظيم من أصول التفسير، كما يهدف كذلك إلى بيان أنواع السياق القرآني، وبيان ما للسياق من أثر عظيم في تفسير القرآن الكريم.

ويتكون هذا البحث من مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، ومنهج البحث، وخطته.

وقد تناولت في المبحث الأول مفهوم السياق القرآني، وأهميته.

وتحدثت في المبحث الثاني عن أنواع السياق القرآني.

وتناولت في المبحث الثالث والأخير آثار دلالة السياق القرآني في التفسير، وذكرت له تسعة عشر أثراً منها، بيان المجمل، وتعيين المحتمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، ودفع إيهام الإشكال عن آيات القرآن الكريم، وغير ذلك كثير.

الكلمات المفتاحية: السياق القرآني، أثر السياق في التفسير، السياق اللغوي، دلالة السياق.

Ahmed Maher Said Nasr

Department of (Tafsir) and Quranic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Sadat. Al Azhar university, Egypt.

Email: ahmadnasr.adv@azhar.edu.eg

Abstract

This research investigates the context of the Qur'an and its importance and implications in interpretation. It aims to highlight the importance of the context of the Koran as a great priciple of interpretation, illustrating the types of the context of the Koran to show its great impact on the interpretation of the Koran.

This research consists of an introduction, three topics and a conclusion.

The introduction includes the statement of the importance of the topic, the reasons for its choice, the problem of research, research methodology, plan and Previous studies.

In the first section, the concept of the Quranic context and its importance are handled.

In the second section the types of Quranic context are studied.

In the third and last section, the implications of the significance of the Qur'anic context in *tafsir* are discussed.

In the conclusion, the most important findings and recommendations are provided.

The appendex has an index of sources and references, and subjects.

Keywords: Quranic Context, impact of Context on Exegesis, Linguistic Context, Context Significance.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فقد دعانا ربنا – تبارك وتعالى – إلى تدبر كتابه وفهمه فقال – جل شأنه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء:٨٢) ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد:٢٤)، وبين لنا ربنا ــ عز وجل ــ أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها، فقال عز وجل : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (ص:٢٩).

ومن أعظم وجوه التدبر في القرآن إمعان النظر والتفكر في سياق آياته، فالسياق من أعظم الطرق الموصلة للفهم الصحيح لكتاب الله ــ عز وجل ــ، وله أهمية كبرى في تفسير القرآن الكريم، وبيان معناه ودلالته، فمن خلاله يمكن التعرف على معاني الآيات، والمناسبة بينها، والترجيح بين الأقوال المحتملة في تفسيرها، كما أنه يرشد إلى بيان المجمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وهو من أعظم الوسائل التي يُدفع بها إيهام الأشكال عن آيات القرآن الكريم، كما أنه يضبط التفسير بالرأي ويمنع من تأويل النص القرآني تأويلا غير سائغ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله: "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين".(١)

ويقول الإمام الزركشي ــ رحمه الله: "دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج١٥ ص٩٤.

القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته".[١]

وإذا عُلم فضل هذا العلم ومنزلته، وبعض آثاره العظيمة في التفسير، فإنه من أعظم ما ينبغي على المهتمين بالتفسير ملاحظته ومراعاته والاهتمام به، ومن هذا المنطلق كتبت هذا البحث الذي سميته: " السياق القرآني وأثره في التفسير" أبين فيه معنى السياق القرآني، وأنواعه، كما أُجلي فيه بشيء من التفصيل الآثار العظيمة للسياق في تفسير كتاب الله عز وجل.

أسباب اختيار الموضوع :

وقد دفعني إلى اختيار الموضوع أسباب من أهمها:

١ – أهمية علم السياق القرآني، كونه أصلا عظيما من أصول التفسير التي يجب أن يُعتمد عليها في تفسير القرآن الكريم .

٢ – تجلية ما لهذا العلم من أثر عظيم في تفسير وبيان معاني القرآن الكريم، وبيان المعاني الراجحة من المرجوحة، والسليمة من السقيمة .

٣ – خدمة كتاب الله – عز وجل – في إبراز منهج صحيح في فهمه وتدبره، وهو تدبره من خلال السياق .

٤ – كون السياق القرآني من أعظم وجوه إعجاز القرآن ودلائله والتي تظهر القرآن كأنه كلمة واحدة ترتيبًا وتماسُكًا .

مشكلة البحث :

تكمُنُ مشكلة هذا البحث في وجود طوائف كثيرة من أهل الزيغ والضلال ، همُّها الأكبر نصر مذهبها الديني أو السياسي ؛ من أجل ذلك عَدَتْ على نصوص القرآن

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ ص٢٠٠،٢٠١.

الكريم تفسرها كيفما ترى أو يحلو لها، مجرِّدةً هذه النصوص من سياقاتها، متجاهلة لها؛ فكانت الجنايةُ على نصوص القرآن الكريم، فأردت في هذا البحث أن أبين قيمة السياق كأصل عظيم من أصول التفسير، وأن أكشف اللثام عن آثار السياق المتعددة في التفسير، فجاء هذا البحث ليجيب عن الأسئلة التالية:

السؤال الأول : ما معنى السياق القرآني، وما أهميته؟

السؤال الثاني : ما أنواع السياق القرآني؟

السؤال الثالث : ما آثار السياق القرآني في التفسير؟

منهج البحث :

اعتمدت في كتابة هذا البحث على عدة أنواع من المناهج هي: المنهج الوصفي، والمنهج الاستقرائي التتبعي، والمنهج التحليلي، والمنهج النقدي.

أما المنهج الوصفي : فقد اعتمدت عليه عند الحديث عن معنى السياق في اللغة والاصطلاح، وبيان أهميته، وأنواعه.

وأما المنهج الاستقرائي التتبعي : فيقوم على تتبع المادة العلمية من مظانها المختلفة، وقد اعتمدت عليه عند جمع أقوال العلماء في أهمية السياق، وعند جمع الأمثلة التي تقع تحت النقاط والعناصر المختلفة التي اشتمل عليها البحث.

وأما المنهج التحليلي : فقد اعتمدت عليه في دراسة الأمثلة التي تخدم عناصر الموضوع المختلفة، حيث تناولت هذه الأمثلة بالشرح والتفسير والتحليل، واستخراج النتائج منها، وتحليل الأقوال والنقول الواردة فيها.

المنهج النقدي : وقد اعتمدت عليه عند دراسة الأمثلة والمسائل التي ورد فيها أكثر من قول، حيث أقوم بنقد هذه الأقوال وترجيح الأولى والأقوى منها بالدليل.

خطة البحث :

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى : مقدمة ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة .

المقدمة : وفيها بيان أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، ومنهج البحث، وخطته .

المبحث الأول : مفهوم السياق القرآني ، وأهميته ، ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : تعريف السياق القرآني في اللغة والاصطلاح .

المطلب الثاني : أهمية السياق القرآني .

المبحث الثاني : أنواع السياق القرآني .

المبحث الثالث : آثار دلالة السياق القرآني في التفسير .

الخاتمة : وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات .

المبحـــث الأول

مفهوم السياق القرآني ،وأهميته.

المطلب الأول : تعريف السياق القرآني في اللغة والاصطلاح:

أولاً: السياق في اللغة:

أصل "السِّياقِ" في اللغة : سِواق، قُلِبَت الْوَاو يَاء لكَسرَةِ السِّينِ [١] ، وهو مأخوذ من الجذر اللغوي "س و ق".

قال ابن فارس ــ رحمه الله : "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال ساقه يسوقه سوقا. والسيقة: ما استيق من الدواب. ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته. والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق. والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها". [٢]

وفي الصحاح للجوهري: "يقال: وَلَدَتْ فلانةُ ثلاثةَ بنينَ على ساقٍ واحد، أي بعضُهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية".[٣]

وقال الزمخشري: "وتساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و"إليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده".[٤]

---

(١) تاج العروس للزبيدي ج٢٥ ص٤٧٥، مادة: سوق.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٣ ص١١٧، مادة: سوق.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ج٤ ص١٤٩٩، مادة: "سوق".

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ج١ ص٤٨٤، مادة: "سوق".

وفي لسان العرب لابن منظور: "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا....، وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت".[١]

ومن مجموع النصوص اللغوية السابقة الواردة في معنى الجذر اللغوي: يتضح لنا أن السياق يدور حول معنى التتابع والاتصال، "فسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه".[٢]

ثانياً: السياق في الاصطلاح:

انقسم الباحثون في تعريف السياق اصطلاحا إلى فريقين:

الفريق الأول : حصروا السياق في الجانب المقالي فقط ضمن حدود السباق واللحاق، فهم يرون أن دلالة السياق مقصورة على المقال دون الحال وهو ما يسميه أهل اللغة بالسياق اللغوي، أو السياق المقالي.

يقول البناني ــ رحمه الله: "السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه".[٣]

ويقول الدكتور المثنى عبد الفتاح: السياق القرآني: هو تتابع المعاني وانتظامها في سلك الالفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، من دون انقطاع أو انفصال".[٤]

وعرف الباحث عبد الحكيم القاسم السياق بأنه: تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده.

وعرف دلالة السياق بأنها: فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج١٠ ص١٦٦، مادة: "سوق".

(٢) المعجم الوسيط ج١ ص٤٦٥.

(٣) حاشية البناني على جمع الجوامع ج١ ص٢٠.

(٤) نظرية السياق للباحث المثنى عبد الفتاح ص١٥.

وعرف دلالة السياق في التفسير: "بأنها بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق إلا بدليل صحيح يجب التسليم له".(١)

وعرف الباحث عبد الرحمن عبد الله سرور المطيري: السياق القرآني بأنه: تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى.

وعرف دلالة السياق القرآني بأنها: بيان المعنى من خلال تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة.(٢)

الفريق الثاني : جعلوا السياق شاملا للمقال المتمثل في السياق واللحاق، وشاملا كذلك للحال أو المقام، وعلى ذلك فالسياق ينقسم إلى قسمين:

السياق اللغوي أو سياق المقال ويتمثل في: الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تفسيره واستخلاص المقصود منه.

السياق أو الحالي أو سياق المقام: ويَعنُون به ما يصاحب النص من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه: كحال المتكلم، والمخاطب، والغرض الذي سيق له... إلخ.

يقول الدكتور تمام حسان متحدثا عن السياق: "هو ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء كانت القرائن مقالية أو حالية.(٣)

وعرف الباحث سعيد بن محمد الشهراني السياق القرآني بأنه: "ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية لها أُثر في فهمه: من سابق أو لاحق به، أو حال المخاطِب،

---

(١) دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال ابن جرير الطبري لعبد الحكيم القاسم ص٦٢.

(٢) السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، لعبد الرحمن عبد الله المطيري ص٧١،٧٢.

(٣) البيان في روائع القرآن لتمام حسان ج١ ص٢٢١ بتصرف.

والمخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه".[١]

كما عرفه الباحث فهد الشتوي بأنه: "الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولا عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم فيه، أو السامع".[٢]

وعرفه الباحث سامي بن عبد العزيز العجلان بأنه: النظم التركيبي للكلام الذي يوجه دلالة الكلمات والجمل والفقرات؛ بناء على موقعها في النص، واستنادا إلى العلاقات المعنوية بينها؛ بما يتفق في النهاية مع الغرض العام للكلام، ومع جملة الظروف الخارجية المصاحبة له.[٣]

ويقول صاحب كتاب دلالة السياق: "وهنا يمكن تلخيص القول في مفهوم السياق في التراث العربي في النقاط الثلاث التالية: الأولى: أن السياق هو الغرض، أي مقصود المتكلم في إيراد الكلام... الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام، الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر والتحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام يمكن أن يضيء دلالة القدر منه(موضع التحليل) أو يجعل منها وجها استدلاليا".[٤]

هذا وقد رجح الكثير من الباحثين المذهب الأول في تعريف السياق وأنه يقتصر على السياق اللغوي أو المقالي فقط، وذلك لأن العلماء قديما استخدموا مصطلح السياق

---

(١) السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة سعيد محمد الشهراني : ٢٢ ، وهي رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لجامعة أم القرى. نقلاً عن: السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ص ٦٥ .

(٢) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى لفهد الشتوي ص ٢٧ .

(٣) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين "دراسة بلاغية في التراث العربي" ص٥٥.

(٤) دلالة السياق للباحث ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي جـ ١ ص ٣٩، ٤٠.

وكانوا يقصدون منه السياق اللغوي أو المقالي، كما كانوا يفرقون بين دلالة المقال ودلالة الحال[١] فيعبرون عن الدلالة الأولى بمصطلح السياق فيما يعبرون عن دلالة الحال بالحال أو المقام أو قرائن الأحوال ولم يعبر أحد منهم عن الحال بمصطلح السياق.

لكن من خلال القراءة في كتب السابقين فقد وقفت على نصوص أخرى وإن كانت قليلة تدل دلالة واضحة على شمول مفهوم السياق لدلالة الحال أو المقام، فهذا الحافظ ابن حجر العسقلاني – رحمه الله – يقرر صراحة في ثنايا كلامه اشتمال السياق على قرائن الأحوال فيقول:" كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السياق".[٢]

وهذا الإمام الشاطبي – رحمه الله – يجعل دلالة الحال من السياق فيقول: "وأيضا؛

---

(١) من هؤلاء العلماء الذين فرقوا بين دلالة المقال ودلالة الحال وعبروا عن الأولى بمصطلح السياق وعن الثانية بالحال أو المقام، ابن دقيق العيد – رحمه الله – حيث قال: "السِّيَاقُ وَالْقَرَائِنُ: فَإِنَّهَا الدَّالَّةُ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ كَلَامِهِ. وَهِيَ الْمُرْشِدَةُ إلَى بَيَانِ الْمُجْمَلَاتِ، وَتَعْيِينِ الْمُحْتَمَلَاتِ". إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد جـ ٢ ص ٢١ .

وابن تيمية – رحمه الله – حيث قال : " ويعلم من سياق الكلام وحال المتكلم ". درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ١٢.

وابن القيم – رحمه الله – حيث قال : " وتارة يحذف الجواب وهو مراد إما لكونه قد ظهر وعرف إما بدلاله الحال كمن قيل له كل فقال لا والله الذي لا إله إلا هو أو بدلالة السياق وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القرآن". التبيان في أقسام القرآن ص ١٠ .

وقال – رحمه الله – في الكافية الشافية ص٧٥:

إن الكلام إذا أتى بسياقه ... يبدي المراد لمن له أذنان

أضحى كنص قاطع لا يقبل ... التأويل يعرف ذا أولوا الأذهان

فسياقة الألفاظ مثل شواهد ال ... أحوال إنهما لنا صنوان

إحداهما للعين مشهود بها ... لكن ذاك لسمع الإنسان

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني جـ ٩ ص ٩٧ .

فالأوامر والنواهي من جهة اللفظ على تساو في دلالة الاقتضاء، والتفرقة بين ما هو منها أمر وجوب أو ندب وما هو نهي تحريم أو كراهة لا تعلم من النصوص، وإن علم منها بعض؛ فالأكثر منها غير معلوم، وما حصل لنا الفرق بينها إلا باتباع المعاني، والنظر إلى المصالح، وفي أي مرتبة تقع، وبالاستقراء المعنوي، ولم نستند فيه لمجرد الصيغة، وإلا لزم في الأمر أن لا يكون في الشريعة إلا على قسم واحد، لا على أقسام متعددة، والنهي كذلك أيضا، بل نقول: كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد[١]، أو جبان الكلب[٢]، وفلانة بعيدة مهوى القرط[٣]، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول "[٤].

وبناء على هذه النصوص يمكن إضافة دلالة الحال إلى مفهوم السياق، مع الإقرار في الوقت نفسه بأن هذا النوع أقل من النوع الأول ــ أعني دلالة النص أو المقال ــ من حيث حجم النصوص الداعمة له، ولهذا ستكون لغالبية العظمى من الأمثلة والاستشهادات في هذا البحث من القسم الأول وهي دلالة النص، أو السياق اللغوي.

---

(١) يقال فلان عظيم الرّماد: أي كثير إطعام الطعام. انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لنصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبي الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب ج٢ ص١٨٨.

(٢) يقال فلان جبان الكلب: كناية عن الجود والكرم، وكثرة قراه للأضياف، لأن جبن الكلب يكون لكثرة الواردين عليه من الأضياف. انظر المنهاج الواضح للبلاغة ج٣ ص٨٠، ص٣٣٣.

(٣) فلانة بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول العنق، فمهوى القرط هو المسافة بين شحمة الأذن إلى الكتف، وطول هذه المسافة يفهم منه: أن العنق طويل. المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ج٥ ص١٥٤.

(٤) الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ج٣ ص٤١٩، ٤٢٠.

المطلب الثاني

أهمية السياق القرآني

يعتبر السياق الذي ترد فيه الألفاظ من أكبر العوامل المحددة للدلالة ، ومعرفة أي مدلولاتها أولى بالتقديم ، والقبول ، لذا كان للسياق القرآني أهمية بالغة في تفسير القرآن الكريم ، فهو أصل عظيم من أصول التفسير، لا غنى للمفسر عنه ، لما له من أثر ظاهر في فهم كلام الله تعالى ، وبيان المعنى الصحيح في الآية .

وتتجلى أهمية السياق القرآني من خلال ما يلي :

أولاً : السياق من تفسير القرآن بالقرآن .

السياق مرتبط حقيقة بالقرآن نفسه من حيث إنه تفسير للقرآن بالقرآن بل هو أعلى درجات تفسير القرآن بالقرآن إذا كان صريحاً؛ لأنه تفسير الآية بما تضمنته من الدلائل والقرائن وبحسب مناسبتها لما قبلها وبعدها هو السياق، وذلك يؤكد أهميته، واعتباره أصلاً في التفسير.

قال صاحب قواعد الترجيح عند المفسرين في تحريره لمفهوم مصطلح القرآن بالقرآن": وبعد طول تأمل في هذا المصطلح ظهر لي ــ والله أعلم ــ أنه ينقسم إلى قسمين؛ أحدهما توقيفي: وهو أن يكون في الكلام لبس وخفاء فيأتي بما يزيله ويفسره، إما بعده مباشرة أو في موضع آخر وارد مورد البيان له، ومن أمثلته تفسير الهلوع في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ بقوله بعده ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ (المعارج ١٩-٢١)، وتفسير الطارق في قوله: ﴿ وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) ﴾ (الطارق:١،٢) بقوله: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) ﴾ (الطارق:٣).

وتفسير أولياء الله في قوله ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ (يونس: ٦٢) بقوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ (يونس:٦٣) ... ،

فهذا القسم ولا شك أنه أبلغ أنواع التفسير، ولا قول لأحد معه، ومثله لا يتخلف فيه، وهو الذي يصنّف من التفسير بالمأثور "[١].

ثانياً: السياق ركن من أركان الإعجاز القرآني

فالقرآن الكريم حجة الله البالغة، وآياته المتجددة، ومعجزة الرسول الخالدة، معجزة لكل جيل، معجزة في كل عصر ومصر، معجزة للبشرية جمعاء في شتى أطوار حياتها، بل معجزة أيضا للجن يقول الله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

ويعتبر السياق من أعظم وجوه الإعجاز القرآني ودلائله التي تظهر القرآن كأنه كلمة واحدة ترتيبًا وتماسُكًا.

وفي بيان هذا الإعجاز يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني ــ رحمه الله ــ في دلائل الإعجاز: "فقيلَ لنا: قد سَمِعْنا ما قلْتُم، فخَبِّرونا عنهم، عما ذا عجزوا ؟ أعن معان من دِقَّةِ مَعانيه وحُسْنِها وصِحَّتها في العقول ؟ أمْ عن ألفاظٍ مِثْلِ ألفاظه؟ فإنْ قلْتُم: "عنِ الألفاظ"، فماذا أَعْجَزَهم منَ اللفظ، أمْ ما بهرهم منه ؟

فقلنا: أعجزهم مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ ، وخصائصُ صادفوها في سِياق لفظه، وبدائعُ راعَتْهم من مبادئ آيهِ ومقاطِعها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضربِ كلّ مثلٍ، ومساقِ كلّ خبرٍ، وصورةِ كلّ عِظَةٍ وتنبيهٍ، وإعلامٍ وتَذكيرٍ، وترغيبٍ وترهيب، ومع كلّ حُجةٍ وبُرهانٍ، وصفةٍ وتبيان وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوه سُورةً سورةً، وعَشْراً عَشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يَنْبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شانُها، أو يُرى أنَّ غيَرها أصلحُ هناك أو أشْبَه، أو أحرى وأخْلَق، بل وجدُوا اتِّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يَدعْ في نفسِ بليغٍ منهم، ولو حكَّ ببافوخِه

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي ج١ ص٣٢٠، ٣٢١.

السَّماء، موضعَ طمعٍ، حتى خرسَتِ الألسنُ عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول".[١]

ويقول الإمام الرازي – رحمه الله: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته".[٢]

ثالثاً : إعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – لدلالة السياق، واعتباره لها في التفسير.

مما يدل على أهمية السياق استعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – له، واعتماده عليه في التفسير، فقد ورد عنه – صلى الله عليه وسلم – عدة أحاديث فسر فيها بعض الآيات القرآنية معتمدا على سياق هذه الآيات، منها :

١ – ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: ٦٠) قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦١) ".[٣]

ففي هذا المثال استخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – السياق في تفسير الآية الكريمة، وتصحيح الفهم الذي فهمته أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – منها، حيث

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ج١ ص٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ج٧ ص١٠٦.

(٣) حديث صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه و سلمن باب ٢٣ ومن سورة المؤمنون ج٥ ص٣٢٧، برقم (٣١٧٥) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج١ ص٣٠٤،٣٠٥، برقم (١٦٢).

ظنت أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ العصاة الذين يرتكبون المعاصي، ويقترفون كبائر الذنوب، وهم خائفون من لقاء الله عز وجل، فبين النبي – صلى الله عليه وسلم – المعنى الصحيح للآية الكريمة معتمدا على السياق، واستدل بلحاق الآية وهو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ على أن المراد بها الذين يعملون الطاعات وهم خائفون ألا يتقبل منهم لتقصيرهم.

٢ – ما روي عن أم مبشر، أنها سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – ، يقول عند حفصة: "لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها" قالت: بلى، يا رسول الله فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : قد قال الله ــ عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ (مريم: ٧٢)".(١)

وفي هذا المثال أيضا استخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – السياق في تفسير الآية الكريمة، وتصحيح الفهم الذي فهمته أم المؤمنين حفصة ــ رضي الله عنها ــ من قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ؛ حيث فهمت منها أنه ما من أحد إلا سيلج النار ويدخلها، فلما أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه لن يدخل النار أحد من أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة إلا أن يشاء الله، وكان عندها هذا الفهم للآية الكريمة، فقالت يا رسول الله إن الله – تبارك وتعالى – يقول: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، فأرشدها النبي – صلى الله عليه وسلم – كي يصحح هذا الفهم الذي فهمته إلى لحاق الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

٣ – ما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في قصة موسى والخضر – عليهما السلام – أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) ﴾

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم ج٤ ص١٩٤٢، برقم (٢٤٩٦).

(الكهف:٦١)، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) ﴾ (الكهف:٦٣). "فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا "[١].

ففي هذا المثال نجد : " أن الله – عز وجل – قال في سورة الكهف في الموضع الأول عن الحوت الذي حمله موسى – عليه السلام – وفتاه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ (الكهف:٦١) ، وقال في الموضع الثاني : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (الكهف:٦٣)، فالقصة واحدة ولكن الوصف لذلك الحوت اختلف، ففي الموضع الأول: كان "سربا"، وهو وصف للحوت الذي انسل ودخل البحر، وفي الموضع الثاني: "عجبا"؛ لأنه بيان لحال موسى وفتاه – عليهما السلام – والذي بين ذلك وحدده هو السياق".[٢]

رابعاً : إعمال السلف لدلالة السياق، واعتبارهم لها في التفسير .

فقد اعتنى السلف الصالح – رحمة الله تعالى عليهم – بالسياق، واعتمدوا عليه في فهمهم وتفسيرهم للقرآن الكريم ، وجعلوه أصلا من الأصول التي يرجع إليها عند اشتباه المعاني، وأنكروا على من فهم الآية على غير السياق والغرض الذي وردت لأجله.

ومن الأمثلة التي تدلل على اعتبار السلف للسياق في التفسير ما يلي :

١ – ما روي عن يسيع الحضرمي، قال: جاء رجل إلى على قال: يقول الله – تبارك وتعالى – ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) جزء من حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف جـ ٤ ص ١٧٥٢ ، برقم (٤٤٤٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخضر عليه السلام جـ ٤ ص ١٨٤٧، برقم (٢٣٨٠).

(٢) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام دراسة نظرية تطبيقية لقهد الشتوي ص ٥١ .

سَبِيلاً (١٤١) ﴾ (النساء:١٤١) وهؤلاء المؤمنون يُقتلون؟! فقال علي: ادنه " فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)[١] .

ففي هذا المثال استُشكل على هذا السائل فهمُ قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) ﴾ ؛ حيث يخبرنا الحق – تبارك وتعالى – أن الكافرين لن يكون لهم سبيل على المؤمنين أبداً، مع أن الواقع يُظهر لنا أن الكافرين يظهرون على المؤمنين ويقتلونهم، فسأل عن ذلك عليا – رضي الله عنه – فأرشده إلى فهم الآية من خلال السياق، وأوضح له معناها مستعينا على ذلك بسباقها، وبين أن المراد بذلك يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله: ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

٢ – ما روي عن عمرو بن دينار – رحمه الله – قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول بأذني هاتين وأشار بيده إلى أذنيه: "يُخرج الله قوماً من النار فيُدخلهم الجنة". فقال له رجل في حديث عمرو إن الله يقول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٧) فقال: جابر بن عبد الله: إنكم تجعلون الخاص عاما، هذه للكفار اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ هذه للكفار".[٢]

---

(١) حديث صحيح: أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ج١ ص٤٨١، برقم (٦٤٧)، والطبري في تفسيره جـ ٢ ص١٢٥، برقم (١٠٧١٤)، والضياء في الأحاديث المختارة جـ ٢ ص٤٠٦،٤٠٧، برقم (٧٩٣)، وقال إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك جـ ٢ ص٣٣٨، برقم (٣٢٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، كما صحح إسناده الدكتور حكمت بشير ياسين في الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور جـ ٢ ص١٢٥.

(٢) حديث صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، باب صفة النار وأهلها ، ذكـر الإخبار عن وصف خمسة أنفس

ففي هذا الأثر المروي نرى أن أحدهم استشكل عليه فهم قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : "يُخرج الله قوماً من النار فيُدخلهم الجنة"، وذلك عند سماعه هذا من جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – فقال له الرجل كيف هذا والله – تبارك وتعالى – يقول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ؟

فبين له جابر – رضي الله عنه – التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة وأنها خاصة بالكفار، ولا يدخل فيها عصاة المؤمنين، واستدل على هذا التفسير بالسياق، لكون الآية في سياق الحديث فيها عن الكفار.

وقد روي نحوا من هذا الأثر المروي عن جابر – رضي الله عنه – ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما؛ وقد أجاب – رضوان الله عليه – بمثل ما أجاب به جابر، فأرشد السائل إلى استعمال السياق لفهم الآية الكريمة.

فعن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله: أعمى البصر أعمى القلب، يزْعُم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ ؟ فقال ابن عباس: ويحك، أقرأ ما فوقها! هذه للكفّار".(١)

٣ – ما روي عن الزهري – رحمه الله – قال: قال عروة: سألت عائشة – رضي الله عنها – فقلت لها أرأيت قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البقرة:١٥٨)، فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة قالت بئس ما قلت يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل

= يدخلون النار من هذه الأمة جـ ١٦ ص٥٢٦،٥٢٧، برقم (٧٤٨٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على الصحيح: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير إسحاق بن موسى الأنصاري، فمن رجال مسلم"، كما صححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان جـ ١٠ ص٤٥٠، برقم (٧٤٤٠).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره جـ ١٠ ص٢٩٤، برقم (١١٩٠٦).

أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فلما أسلموا سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك قالوا يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ . الآية

قالت عائشة – رضي الله عنها – وقد سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما".(١)

ففي هذا الأثر نرى أن عروة بن الزبير – رضي الله عنهما – قد فهم من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ إباحة عدم الطواف بالصفا والمروة، فلما صرح بهذا الفهم أمام خالته أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –، أنكرت عليه هذا الفهم الذي فهمه من إباحة عدم الطواف بينهما؛ وذلك لأن الإباحة تحتاج رفع الإثم عن التارك، وهذا ما لا يدل عليه سياق الآية، وبينت أنه لو أريد هذا المعنى في الآية لكان سياقها: "فلا جناح عليه أن لا يتطوف بهما".

٤ – ما روي عن ابن وهب – رحمه الله – قال، قال مالك وسألته عن قول الله: ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ (البقرة:٢٣٩) – قال: راكبا وماشيا، ولو كانت إنما عنى بها الناس، لم يأت إلا "رجالا" وانقطعت الآية. إنما هي "رجال": مشاة، وقرأ: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ (سورة الحج: ٨٧)، قال: يأتون مشاة وركبانا".(٢)

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله ج٢ ص٥٩٢، برقم (١٥٦١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ج٥ ص٢٤٤، برقم (٥٥٦٥) ، بإسناد صحيح: فالراوي عن مالك ـــ رحمه الله ـــ عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري: إمام حافظ. (سير أعلام النبلاء للذهبي ج٩ ص٢٢٣)، والراوي عن ابن وهب: يونس بن عبد الأعلى وهو كذلك إمام حافظ. (سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٢ ص٣٤٩)، وروى عن يونس الإمام الطبري ـــ رحمه الله.

ففي هذا الأثر سأل ابن وهب – رحمه الله – شيخه مالك بن أنس – رحمه الله – عن معنى كلمة: "رجالاً" في قوله تعالى: ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ فبين له معناها والمراد منها وهو مشاة، واستدل على هذا المراد بالسياق؛ وهو عطف كلمة: ﴿ رُكْبَانًا ﴾ التي هي جمع راكب عليها، إذ لو كان المقصود بها الناس، لم يأت إلا "رجالا" فقط وانقطعت الآية، كما استدل على ذلك المعنى أيضا بآية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ والمعنى: يأتوك مشاة، وركباناً على كلّ ضامر، وهي الإبل المهازيل.

خامساً: أقوال العلماء في بيان أهمية السياق.

فإن الناظر في كتب العلماء يجدها زاخرة بالعديد من الأقوال في أهمية السياق، ومن هذه الأقوال ما يلي:

١ – قال مسلم بن يسار – رحمه الله : "إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده".(١)

٢ – وقال الإمام الشافعي – رحمه الله: " فإنما خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها، على ما تَعْرِف مِن معانيها، وكان مما تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها، وأنَّ فِطْرَتَه أنْ يخاطِبَ بالشيء منه عامًّا، ظاهِرًا، يُراد به العام، الظاهر، ويُسْتغنى بأوَّل هذا منه عن آخِرِه. وعاماً ظاهراً يراد به العام، ويَدْخُلُه الخاصُّ، فيُسْتَدلُّ على هذا ببَعْض ما خوطِبَ به فيه؛ وعاماً ظاهراً، يُراد به الخاص. وظاهراً يُعْرَف في سِياقه أنَّه يُراد به غيرُ ظاهره. فكلُّ هذا موجود عِلْمُه في أول الكلام، أوْ وَسَطِهِ، أو آخِرَه".(٢)

٣ – وقال ابن قتيبة الدينوري – رحمه الله – عن كتابه غريب القرآن: "وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين، وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولا تكلَّفنا في شيء منه بآرائنا غيرَ معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أَوْلَى

---

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص٣٧٧.

(٢) الرسالة للشافعي ص٥٠.

الأقاويلِ في اللغة، وأشْبَهَهَا بقصةِ الآية".[١] . فنجد أنه جعل الرأي الراجح هو ما دلت عليه اللغة بمعونة دلالة السياق.

٤ – وقال الإمام الطبري – رحمه الله: "توجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلاً عنه".[٢]

وقال – رحمه الله – أيضاً: " فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به حجة؛ فأما الدعاوى فلا تتعذر على أحد".[٣]

٥ – وقال إمام الحرمين الجويني – رحمه الله – : "المعاني يتعلق معظمها بفهم النظم والسياق".[٤]

٦ – وقال الإمام البغوي ــ رحمه الله – حمه الله – مبيناً جواز تأويل القرآن الكريم لأهل العلم، ولكن بشرط احتمال اللغة له، وموافقته للسياق، وعدم مخالفته الكتاب والسنة: "فأما التأويل– وهو صرف الآية إلى معنى محتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط – فقد رخص فيه لأهل العلم".[٥]

٧ – وقال ابن دقيق العيد – رحمه الله : " السِّيَاقُ وَالْقَرَائِنُ: فَإِنَّهَا الدَّالَّةُ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ كَلَامِهِ. وَهِيَ الْمُرْشِدَةُ إلَى بَيَانِ الْمُجْمَلَاتِ، وَتَعْيِينِ الْمُحْتَمَلَاتِ".[٦]

٨ – وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام – رحمه الله : "السِّيَاق مرشد إِلَى تبين

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج٥ ص١١٧.

(٣) المرجع السابق ج٧ ص٦٧٤.

(٤) البرهان في أصول الفقه لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبي المعالي ج٢ ص٨٧٠.

(٥) معالم التنزيل للبغوي ج١ ص٤٦.

(٦) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ج٢ ص٢١.

المجملات وترجيح المحتملات وَتَقْرِير الواضحات وكل ذَلِك بعرف الِاسْتِعْمَال فَكل صفة وَقعت فِي سِيَاق الْمَدْح كَانَت مدحا وكل صفة وَقعت فِي سِيَاق الذَّم كَانَت ذما فَمَا كَانَ مدحا بِالْوَضْعِ فَوَقع فِي سِيَاق الذَّم صَار ذما واستهزاء وتهكما بعرف الِاسْتِعْمَال مِثَاله {ذُقْ إِنَّك أَنْت الْعَزِيز الْكَرِيم} أَي الذَّلِيل المهان لوُقُوع ذَلِك فِي سِيَاق الذَّم".(١)

٩ – وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله : "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج. وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين".(٢)

فبين – رحمه الله – أن الاحتمال اللغوي وحده ليس كفيلا بالإصابة، وإنما لابد من اقترانه بدلالة السياق حتى يتعين المراد من هذه الاحتمالات اللغوية، ثم يؤكد – رحمه الله – هذا المعنى في بيانه لأسباب الخطأ في التفسير، حيث ذكر منها: "مراعاة مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربي ، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام".(٣)

ويبين – رحمه الله – أن السياق هو الذي ينشئ الدلالة فيقول : "الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية".(٤)

١٠ – وقال الإمام ابن جزي الكلبي – رحمه الله – في بيان وجوه الترجيح : "أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل على ما قبله وما بعده".(٥)

---

(١) الإمام في بيان أدلة الأحكام لعز الدين بن عبد السلام ص١٥٩، ١٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج١٥ ص٩٤.

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص٣٣.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٦ ص١٤.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ج١ ص١٩.

١١ – وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله : " السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أنت الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير".[١] . وقال – رحمه الله – أيضاً:

وانظر إلى نظم السياق تجد به ... سرا عجيبا واضح البرهان
فتدبر القرآن إن رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن
قالوا وإيراد السياق يبين المض ... مون منه بأوضح التبيان [٢]

١٢ – وقال الإمام الزركشي – رحمه الله : "دلالة السياق فإنها ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته وانظر إلى قوله تعالى: {ذق إنك أنت العزيز الكريم} كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير".[٣]

وقال – رحمه الله – أيضاً: "واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره ..... وقسم لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب المفردات فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق".[٤]

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ج٤ ص١٣١٤.

(٢) أبيات مختارة من القصيدة النونية لابن القيم ص٤٩، ٧٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ ص٢٠٠، ٢٠١.

(٤) المرجع السابق بتصرف ج٢ ص١٧٢.

وقال أيضاً : "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز ولهذا ترى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمدا حتى كأن غيره مطروح".[١]

١٣ – وقال الإمام الشاطبي – رحمه الله – : "كلام العرب على الإطلاق لابد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول؛ فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟".[٢]

وقال – رحمه الله – أيضاً: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان؛ فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل؛ فبعضها متعلق بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية؛ رجع إلى نفس الكلام، فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد؛ فعليه بالتعبد به، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل؛ فإنها تبين كثيرا من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر".[٣]

---

(١) المرجع السابق ج١ ص٣١٧.

(٢) الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ج٣ ص٤١٩، ٤٢٠.

(٣) المرجع السابق ج٤ ص٢٦٦.

١٤ – وقال الإمام السيوطي – رحمه الله – أثناء بيانه للشروط الواجبة على المفسر: "وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام وأن يؤاخي بين المفردات".[١]

١٥ – وقال ولي الدين الدهلوي – رحمه الله: "ولابد للمفسر العادل أن ينظر إلى شرح الغريب نظرتين ويزنه وزنا علمياً مرتين، مرة في استعمالات العرب حتى يعرف أي وجه من وجوهها أقوى وأرجح، ومرة ثانية في مناسبة السابق واللاحق بعد إحكام مقدمات هذا العلم وتتبع موارد الاستعمال والفحص عن الآثار حتى يعلم أي صورة من صورها أولى وأنسب".[٢]

١٦ – وقال الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – مبيّناً أن المرتبة العليا لفهم القرآن هي الفهم العام للسياق القرآني، فيقول : " والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، ...، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته".[٣]

١٧ – وقال جعل الدكتور محمد عبد الله دراز – رحمه الله – فهم السياق على رأس قائمة الشروط الواجب على المفسر الإلمام بها؛ حيث قال: "إن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٤ ص٢٢٧.

(٢) الفوز الكبير في أصول التفسير لأحمد بن عبد الرحيم المعروف بـــ «ولي الله الدهلوي» ص١٨٢.

(٣) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج١ ص٢٠.

– وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومقاطعها– إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة".[١]

١٨ – وقال الشيخ السعدي – رحمه الله: "وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. بقطع النظر عن المراد وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها".[٢]

١٩ – وتقول الدكتورة عائشة بنت الشاطئ – رحمها الله : "إن ضوابط منهجنا الالتزام بصريح النص وحكم السياق، والالتزام بدلالات الألفاظ كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ في المصحف والاحتكام إلى توجيه صريح السياق".[٣]

سادساً : أن السياق القرآني له آثار كثيرة في التفسير، مما يزيد في أهميته، وسأعرض هذه الآثار في المبحث الثالث بمشيئته تعالى.

---

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله دراز ص١٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ص٣٠.

(٣) القرآن والتفسير العصري لبنت الشاطئ ص٣٠.

المبحث الثاني

أنواع السياق القرآني

يتنوع السياق إلى أنواع مختلفة باعتبارات متنوعة، فهناك أنواع للسياق من حيث حدود الدلالة، وهناك أنواع للسياق من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص، وهناك أنواع للسياق من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي، وتفصيل هذه الأنواع كما يلي:

أولاً: أنواع السياق من حيث حدود الدلالة.

ينقسم السياق من حيث حدود الدلالة إلى نوعين إجمالاً ، وأربعة أنواعٍ تفصيلاً؛ فينقسم إجمالاً إلى: سياق جزئي، وسياق كلي.

أما السياق الجزئي أو السياق الخاص: فهو الذي ينحصر في حدود جملة أو آية واحدة، أو مجموعة من الآيات المتجاورة.

وأما السياق الكلي، أو السياق العام: فهو الذي يكون على امتداد السورة كلها، أو القرآن بأجمعه.

ويُؤخذ من هذا الكلام أن السياق له أربعة أنواع تفصيلاً وهي: سياق الآية، وسياق النص ويُسمى سياق المقطع، وسياق السورة، وسياق القرآن.

يقول صاحب كتاب دلالة السياق:" السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه يقتصر على آية واحدة، ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السورة كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى أن هناك سياق آية، وسياق النص، وسياق السورة، والسياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى".(١)

أولاً: سياق الآية:

من المعلوم أن المفردة أو اللفظة القرآنية قد يكون لها أكثر من معنى، وهذه المعاني كلها

---

(١) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم لعبد الوهاب الحارثي ص٨٨.

تكون محتملةً في تفسير اللفظة، ولكن إذا نظرنا إلى هذه اللفظة في ضوء سياق الآية التي وردت فيها، فإنه حينئذ "تتحدد المعالم لهذه المفردة، ويتضح المراد منها، ويُقطع بإرادة أحد معانيها المحتملة في هذا الموضوع، وينتفي تعدد المعاني واشتراكه وتعميمه.

وفي هذا النوع من أنواع السياق يكون النظر في سياق الآية (سباقها ولحاقها)، دون تجاوز ذلك إلى ما سبقها أو لحقها من آيات، لتحديد واقتناص المعنى المراد لأحد المفردات من خلال معانيها المتعددة والمحتملة".(١)

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١ – لفظ الإحصان: يُطلق على الإسلام، والعفاف، والحرية، والتزويج(٢)، ويتحدد معناه، والمراد منه من خلال السياق.

ففي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (النساء:٢٥)، اختلف العلماء في المراد بالإحصان إلى قولين: أحدهما: الإسلام، والثاني: التزويج.

والذي يدل عليه السياق هو القول الثاني وذلك: "لأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت في قوله: ﴿ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، فكيف يقال في المؤمنات: فإذا أسلمن؟(٣)

وقد قد رجح هذا القول الإمامان ابن كثير والشنقيطي ـــ رحمهما الله تعالى.

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – عند تفسيره للآية: "والأظهر – والله أعلم – أن المراد بالإحصان ها هنا التزوج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ

---

(١) السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير" لعبد الرحمن عبد الله المطيري ص١٠٦.

(٢) تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي ج٢ ص٩٠.

(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٣ ص٥٩٧.

الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (النساء٢٥)، والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله تعالى: "فَإِذَا أُحْصِنَّ" أي تزوجن كما فسره ابن عباس[١] ومن تبعه".[٢]

وقال الشيخ الشنقيطي – رحمه الله : "قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ أي: فإذا تزوجن، وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾[٣] .

٢ – لفظ الظن من المشترك اللفظي ، وهو يأتي أحيانا بمعنى الشك ، ويأتي أحيانا بمعنى اليقين، ويتحدد معناه والمراد منه من خلال السياق .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف:٥٣)، المراد منه اليقين، فمعنى ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي: "فعلموا وأيقنوا أنهم داخلوها"[٤] ، والحامل لدلالته على اليقين دون الشك هو سياق الآية ، فقد سبق هذه اللفظة في نفس الآية قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ والمعنى : "إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك [٥] فإذا رأى

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره ج٨ ص٢٠١ عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة أنه قال: "فإذا أحصن"، يعني: إذا تزوّجن حرًّا، وطريق علي بن أبي طلحة طريق حسن. انظر الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بن بشير ياسين ج١ ص٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٢٢٩.

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ج١ ص٢٣٣.

(٤) النكت والعيون للماوردي ج٧ ص١٨٤.

(٥) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين ج٤ ص٢١٨٤، برقم (٢٨٤٢) عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها".[١]

ثانياً: سياق النص أو المقطع.

وهو جزء من السورة له سياقه الخاص ، ويتناسب وسياق السورة الكريمة [٢] .

ويأتي سياق النص كجزء ووحدة من جملة السورة يكون موضوعه واحداً وغرضه واحداً، لكنه يتناسق ويتناسب مع وحدة السورة العام، ويظهر هذا النوع من السياق غالباً في سياق القصص، وبعض التشريعات، والموضوعات.[٣]

ومن الأمثلة على هذا النوع في القصص:

اختلاف العلماء حول قائل هذه المقالة: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف:٥٣) ، وذلك في قصة يوسف – عليه السلام – ، حيث اختلف العلماء في ذلك إلى قولين :

أحدهما : أن القائل هو يوسف – عليه السلام – .

يقول الإمام أبو إسحاق الزجاج – رحمه الله: والذي عليه المفسرون أنه هم بها وجلس منها مجلس الرجل من المرأة إلا أن الله تفضل عليه بأن أراه البرهان، ألا تراه قال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ والمعنى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به.[٤]

الثاني: أن هذا القول من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف ـــ عليه السلام.

والذي يدل عليه سياق الآيات هو القول الثاني .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص١٥٤.

(٢) الترجيح بين دلالة السياق وسبب النزول لمحمد أبي زيد ص١٧.

(٣) أنواع السياق في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية للدكتورة آمال السيد محمد الأمين، بحث منشور بمجلة جامعة الناصر، العدد السابع، يناير – يوليو ٢٠١٦ (ص١٠٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٣ ص١٠١.

وقد نصر هذا القول الإمام ابن القيم – رحمه الله – مستدلا على ذلك بسياق النص أو المقطع – حيث قال:" فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ؟

قيل : هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم، وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف – عليه السلام.

والصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي... ﴾ (يوسف:٥١،٥٣)

ومن جعله من قوله، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني : أن يوسف لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ، والسياق صريح في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (يوسف:٥٠)، فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته ولم يمكنهن إلا قول الحق ، فقال النسوة : ﴿ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ (يوسف:٥١)، وقالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [١] .

وقد أحسن الدكتور محمد أبو شهبة – رحمه الله – في الرد على الراوية التي تمسك بها أصحاب القول الأول (الذين قالوا بأن قائل هذه المقالة يوسف عليه السلام)، وهي من الروايات الإسرائيلية التي تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وفيها: "أن يوسف – عليه

(١) التفسير القيم لابن القيم ص٣٢٩، ٣٣٠.

السلام – لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرَّتِ المرأة، قال يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٢) قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف:٥٣)؛ حيث ذكر – رحمه الله – الروايات الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين وقال إن هذه الروايات لا تليق بمقام الأنبياء ثم عقب على هذه الروايات بأنها من :"المرويات المكذوبة، والإسرائيليات الباطلة، التي خرجها بعض المفسرين الذين كان منهجهم ذكر المرويات وجمع أكبر قدر منها، سواء منها ما صح وما لم يصح، والإخباريون الذين لا تحقيق عندهم للمرويات، وليس أدل على ذلك من أنها لم يخرجها أحد من أهل الكتاب الصحيحة، ولا أصحاب الكتب المعتمدة الذين يرجع إليهم في مثل هذا، والقرآن يرد هذه الأكاذيب.

وقد فات هؤلاء الدساسين الكذابين أن قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ (يوسف:٥٢،٥٣)، ليس من مقالة سيدنا يوسف – عليه السلام – ، وإنما هو من مقالة امرأة العزيز، وهو ما يتفق وسياق الآية، ذلك: أن العزيز لما أرسل رسوله إلى يوسف لإحضاره من السجن قال له: ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأحضر النسوة، وسألهن ، وشهدن ببراءة يوسف، فلم تجد امرأة العزيز بدا من الاعتراف، فقالت: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ فكل ذلك من قولها: ولم يكن يوسف حاضرا ثَمَّ؛ بل كان في السجن، فكيف يعقل أن يصدر منه ذلك في مجلس التحقيق الذي عقده العزيز ؟.

وقد انتصر لهذا الرأي الذي يوائم السياق والسباق: الإمام ابن تيمية، وألف في ذلك تصنيفا على حدة".(١)

ومن الأمثلة على ذلك في التشريعات:

آيات النفقة، والربا، والمداينات في سورة البقرة كل موضوع جاء لغرض، وقد

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد بن محمد أبي شهبة ص٢٢٥ – ٢٢٧.

اجتمعت كلها في غرض واحد وسياق واحد هو حفظ الأموال وبناء النظام الاقتصادي للأمة.

قال الإمام الطاهر بن عاشور ـــ رحمه الله: "نظم القرآن أهم أصول حفظ مال الأمة في سلك هاته الآيات، فبعد أن ابتدأ بأعظم تلك الأصول وهو تأسيس مال للأمة به قوام أمرها، يؤخذ من أهل الأموال أخذاً عدلاً مما كان فضلا عن الغنى فقرضه على الناس، يؤخذ من أغنيائهم فيرد على فقرائهم، سواء في ذلك ما كان مفروضا وهو الزكاة أو تطوعا وهو الصدقة، فأطنب في الحث عليه، والترغيب في ثوابه، والتحذير من إمساكه، ما كان فيه موعظة لمن اتعظ، عطف الكلام إلى إبطال وسيلة كانت من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهم، وهي المعاملة بالربا ..... إلى أن قال: وبعد أن اهتم القرآن بنظام أحوال المسلمين في أموالهم فابتدأ بما به قوام عامتهم من مواساة الفقير وإغاثة الملهوف، ووضح ذلك بما فيه عبرة للمعتبر، ثم عطف عليه التحذير من مضايقة المحتاجين إلى المواساة مضايقة الربا مع ما في تلك المعاملات من المفاسد، ثلث ببيان التوثيقات المالية من الإشهاد، وما يقوم مقامه وهو الرهن والائتمان. وإن تحديد التوثق في المعاملات من أعظم وسائل بث الثقة بين المتعاملين، وذلك من شأنه تكثير عقود المعاملات ودوران دولاب التمول "[١].

ثالثاً: سياق السورة:

فكل سورة من سور القرآن الكريم لها محور عام وغرض رئيس أو أكثر يستخلص من سياقها العام، وتكون المقاطع ذات الأغراض الخاصة في السورة خادمة لهذا المحور العام والغرض الرئيس، "فتتناسق أوضاعها، وتتآلف عناصرها، ويأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها"[٢] ذات محور عام.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز – رحمه الله : "إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حشيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا؛ فإذا هي –لو

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٣ ص٧٨ ــ ٩٨ بتصرف.

(٢) النبأ العظيم ص١٧٦، السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ص١١٣.

تدبرت– بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا".[١]

والنظر في سياق السورة له أهمية بالغة في الكشف عن معاني بعض ألفاظها، والترجيح بين المعاني المحتملة لآياتها، وفي الرد على بعض الإشكالات الواردة حول بعض الآيات الواردة فيها.

ومن الأمثلة التي تبين لنا أهمية سياق السورة في هذا الأمر ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ (الصافات:١٥٨).

اختلف العلماء في المراد بالحضور في الآية الكريمة على قولين:

أحدهما: أن المراد بالحضور حضور العذاب في النار.

الثاني: أن المراد بالحضور الحضور للحساب.[٢]

وقد رجح الإمام الطبري ــ رحمه الله ــ القول الأول أن المراد بالحضور الحضور للعذاب واستدل على ذلك بسياق السورة الكريمة، حيث ورد ذكر الإحضار في هذه السورة مرتين غير هذا الموضع : الأول: ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

(١) النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٨٨ .

(٢) جامع البيان للطبري جـ ٢١ ص ١٢٢، النكت والعيون للماوردي ج٥ ص٧١، زاد المسير لابن الجوزي جـ ٣ ص ٥٥٥ .

(الصافات:٥٧)، والثاني : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ (الصافات:١٢٧)، وكليهما بمعنى الإحضار للعذاب، فيكون هذا الموضع بمعناهما .

يقول الإمام الطبري – رحمه الله: " وقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: ولقد علمت الجنة إنهم لمشهدون الحساب.... وقال آخرون: معناه: إن قائلي هذا القول سيُحضرون العذاب في النار.... وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنهم لمحضرون العذاب، لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة، إنما عُنِيَ به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع".(١)

٢ – جاء المشرق والمغرب في القرآن الكريم تارة بالجمع وأخرى بالتثنية وأخرى بالإفراد، فالأول: كقوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (المعارج:٤٠)، والثاني: كقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ (الرحمن:١٧)، والثالث: قوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المزمل:٩)

وقد بحث العلماء عن السر في تثنية المشرق والمغرب في سورة الرحمن دون غيرها، وذكروا أن سياق السورة له أثر في ورود الكلمتين بصيغة المثنى، يقول الإمام الزركشي – رحمه الله : "أما ما ورد مثنى في سورة الرحمن فلأن سياق السورة سياق المزدوجين".(٢)

رابعاً: سياق القرآن:

يقول صاحب كتاب دلالة السياق منه مأمون لتفسير القرآن الكريم : "أما السياق القرآني فإننا نقصد به أمرين :

١ – الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته، الأمر الذي يؤكد ضرورة الإلمام بهذا الأسلوب، ومعرفة خصائصه، مع معرفة الأغراض والمقاصد الكلية، والاتجاهات العامة الثابتة في

---

(١) جامع البيان للطبري ج٢١ ص١٢٢ بتصرف.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص١٦.

القرآن الكريم.

٢ – الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها مع اختلاف يسير في طريقة سردها وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية تتصل بأغراض السورة".[١]

ويتبين هذا من عدة أوجه :

الأول: استقراء وحصر مقاصد القرآن العامة، وبيان المعنى على ضوء ذلك.

من المعلوم أن القرآن الكريم أنزل لمقاصد جليلة وأغراض نبيلة، مبنية على مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، ومتضمنة لأسباب السعادة في المعاش والمعاد، وفهم هذه المقاصد والأغراض الأساسية لنزول القرآن الكريم أمر لابد منه عند المفسر لكلام الله – عز وجل–، والإخلال به يؤدي إلى الوقوع في الخطأ عند تفسير كلام الله –عز وجل–.

يقول الإمام الشاطبي –رحمه الله–:" قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: ٢٤)، فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر".[٢]

ويرى – رحمة الله عليه – حرمة الكلام في القرآن أو السنة لمن لا يعرف المقاصد الأساسية منهما فيقول: "فإن القرآن والسنة لما كان عربيين لم يكن لينظر فيهما إلا عربي، كما أن من لم يعرف مقاصدهما لم يحل له أن يتكلم فيهما؛ إذا لا يصح له نظر حتى يكون عالما بهما، فإنه إذا كان كذلك؛ لم يختلف عليه شيء من الشريعة".[٣]

وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله – أهمية الوقوف على مقاصد القرآن، ثم أجملها – رحمه الله – في ثمانية مقاصد فقال : "فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بينا وتعبدنا

---

(١) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم لعبد الوهاب الحارثي ص٨٨.

(٢) الموافقات للشاطبي ج٤ ص٢٠٩.

(٣) المرجع السابق ج٣ ص٢١٣.

بمعرفة مراده والاطلاع عليه فقال: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ (ص: ٢٩) .....أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها، فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور: "الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني : تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها ، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول".(١)

ومن أدلة اعتبار مقاصد القرآن الكريم: ما جاء في السنة النبوية من اعتبار سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن(٢)، وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن(٣)، وهذا إنما يكون بالنظر لمعاني هاتين السورتين بالنسبة لمعاني القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير ج١ ص٣٩ــ٤١ بتصرف.

(٢) ورد بيان أن سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن في ما أخرجه البخاري في (صحيحه، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ج٤ ص١٦٢٣، برقم (٤٢٠٤)) عن سعيد بن المعلى ــ رضي الله عنه ــ قال: " كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ فلم أجبه فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: "ألم يقل الله { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم }) . ثم قال لي (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد)، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له ألم تقل (لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن)، قال: {الحمد لله رب العالمين} هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

(٣) ورد بيان أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن في أحاديث كثيرة منها: ما أخرجه مسلم في (صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ج١ ص٥٥٧، برقم (٨١٢)) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ، قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فقرأ: قل هو الله أحد، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن».

قال الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله – في بيان ما تضمنه الفاتحة: "وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة : ....الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ ، والأوامر والنواهي من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، والوعد والوعيد من قوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ} إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد. والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإن قوله: ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، حمد وثناء، وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى قوله: ﴿ الْمُستَقِيمَ ﴾ من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ ﴾ إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها أثناء على الله تعالى".[١]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في بيان سبب اعتبار سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن: "بقي الكلام في كون ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ما وجه ذلك ؟ فيقال : قد قيل فيه وجوه أحسنها – والله أعلم – الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس ابن سريج فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن"؛ فقال: معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات".[٢]

---

(١) المرجع السابق ج١ ص١٣٣ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى ج١٧ ص١٠٣.

فنجد أن أبا العباس بن سريج ــ رحمه الله ــ قد ذكر هذا الجواب لما نظر إلى سياق السورة وما اشتملت عليه من المعاني، وقارنه بسياق القرآن وما دل عليه من المعاني والمقاصد، فكان في هذه السورة ثلث هذه المقاصد والمعاني التي اشتمل عليها القرآن.

الثاني: استقراء اطراد لفظ في معنى في القرآن يجعله مرجحا في إرادة ذلك المعنى حال الخلاف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في تقرير هذا الأمر: "فإذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء، ولفظ الشارع قد اطرد في معنى، لم يجز أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء".(١)

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١ – ترجيح الإمام الزمخشري ــ رحمه الله ــ عند تعرضه لمعنى النكاح في قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ (النور:٣)، أنه بمعنى العقد، ورفضه أن يكون بمعنى الوطء، مستدلا على ذلك بسياق القرآن.

فقد اختلف العلماء في معنى النكاح الوارد في الآية الكريمة، فقال بعضهم بمعنى العقد، وقال بعضهم بمعنى الوطء، وقد رجح الإمام ــ رحمه الله ــ القول الأول أن المراد به العقد واستدل على ذلك بأن لفظ النكاح اطرد مجيئه في القرآن بمعنى العقد فقال: "وقيل: المراد بالنكاح الوطء، وليس بقول لأمرين، أحدهما : أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد ....."(٢)

٢ – ما ذكره الشنقيطي ــ رحمه الله ــ عند تعرضه لمعنى الغلبة في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ (المجادلة:٢١)، حيث قال: "من أنواع البيان الاستدلال على أحد المعاني بكونه هو الغالب في القرآن، ومثاله قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ

---

(١) المرجع السابق ج٧ ص٣٥.

(٢) الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢١٢.

لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ ، فقد قال بعض العلماء: بأن المراد بهذه الغلبة: الغلبة بالحجة والبيان، والغالب في القرآن استعمال الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن".(١)

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الأنفال:٦٥) ، وقوله : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٦) ، وقوله : ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ﴾ (الروم:١ــ٤) ، وقوله : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٤٩)، وقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ... ﴾ (آل عمران:١٢)، إلى غير ذلك من الآيات.(٢)

الثالث : استقراء الأساليب المطردة في القرآن الكريم ، والمقصود بالأساليب المطردة هو ما يستعمله القرآن من الأساليب، ويطرد في القرآن كله، وهذا ما يسمى بعادات القرآن.

يقول الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله – : "وللقرآن أسلوب خاص".(٣) . ويقول – رحمه الله – : " يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه".(٤)

ومن الأمثلة على ذلك:

١ – ما ذكره الإمام الشاطبي – رحمه الله – حيث قال: " إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه وسوابقه أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف".(٥)

٢ – ما ذكره الإمام ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ج٨ ص١٥.

(٢) المرجع السابق ج١ ص٢١٠.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١ص٦٤.

(٤) المرجع السابق ج١ ص١٢٤.

(٥) الموافقات للشاطبي ج٤ ص١٦٧.

(البقرة: ٢١٢) فقال": وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ ﴾ أريد من الذين اتقوا المؤمنون الذين سخر منهم الذين كفروا؛ لأن أولئك المؤمنين كانوا متقين.. ولكنه لم يكنّ بالاسم الذي سبق أعني "الَّذِين آمَنُواْ" لقصد التنبيه على مزية التقوى، وكونها سبباً عظيماً في هذه الفوقية، على عادة القرآن في انتهاز فرص الهدى والإرشاد ليفيد فضل المؤمنين على الذين كفروا، وينبه المؤمنين على وجوب التقوى لتكون سبب تفوقهم على الذين كفروا يوم القيامة، وأما المؤمنون غير المتقين فليس من غرض القرآن أن يعبأ بذكر حالهم ليكونوا دَوماً بين شدة الخوف وقليل الرجاء، وهذه عادة القرآن في مثل هذا المقام".(١)

ثانياً : أنواع السياق من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص :

إن خاصية التجاور في الكلام تحتم على الألفاظ، وكذلك على الجمل والفقرات الخضوع لقانون التوالي الذي يجعل علاقاتها دائرة بين قطبي السباق واللحاق؛ فكل كلمة في النص هي سابقة للكلمات التالية لها، ولاحقة بالنسبة للكلمات المتقدمة عليها، وهذا الأمر ينطبق أيضا على الجمل والفقرات، وهنا بالتحديد يأتي دور السياق ليقول للمتلقي: إن فهمك لأي كلمة أو جملة أو فقرة لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة ومتكاملة دون تدبر ما قبلها وما بعدها من الكلمات والجمل والفقرات، على اعتبار أن دلالة هذه الكلمة أو الجملة أو الفقرة قد أصبحت دلالة مقيدة بالعلاقة النصية التي تربطها بما قبلها وما بعدها؛ لكن هذا لا يعني أن علاقة الوحدة الأسلوبية بما قبلها وما بعدها دائما بالمستوى نفسه والدرجة ذاتها، فقد تكون علاقتها بما قبلها أوثق كما قد يحدث العكس، والذي يحدد هذا كله هو الغرض العام الذي يوجه الدلالة الكلية للنص.....، وقد طبق المفسرون هذه القاعدة الأسلوبية التي هي من أهم القواعد التي يقوم عليها علم التفسير، فحين تتعدد الأقوال وتتخالف في تفسير آية أو عدة آيات؛ فإن من أوثق الأسس التي يقوم عليها الترجيح بين هذه الأقوال هو النظر إلى السياق لربط هذه الآية أو الآيات؛ إما بسياقها السابق، وإما بسياقها اللاحق، وكثيرا ما كانوا يربطونها بالسياقين معا.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢ ص٢٩٧.

وهكذا فقد تحصل لدينا من كل ما سلف أن السياق في الحقيقة سياقان (١)

أ – سياق سابق ويُسمى (السباق) .

ب – وسياق لاحق ويُسمى (اللحاق) .

أما السياق السابق أو السباق : فهو ما قبل النص المراد بيانه وتفسيره من الألفاظ والجمل .

قال الكفوي – رحمه الله – : " والسباق، بالموحدة: ما قبل الشيء والسياق بالمثناة: أعم ".(٢)

وأما اللحاق : فهو ما بعد النص المراد بيانه وتفسيره من الألفاظ والجمل.

ومن الأمثلة على السياق السابق :

ما روي عن عمرو بن دينار – رحمه الله – قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول بأذني هاتين وأشار بيده إلى أذنيه: "يُخرج الله قوماً من النار فيُدخلهم الجنة". فقال له رجل في حديث عمرو إن الله يقول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٧) فقال: جابر بن عبد الله: إنكم تجعلون الخاص عاما، هذه للكفار اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ هذه للكفار".(٣)

---

(١) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين دراسة بلاغية في التراث العربي سامي بن عبد العزيز بن علي العجلان ص٣٨ــ٤٢ بتصرف.

(٢) الكليات للكفوي ص٥٠٨.

(٣) حديث صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، باب صفة النار وأهلها، ذكر الإخبار عن وصف خمسة أنفس يدخلون النار من هذه الأمة ج١٦ ص٥٢٦،٥٢٧، برقم (٧٤٨٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على الصحيح: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين

فقد بين جابر – رضي الله عنه – التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة وأنها خاصة بالكفار، ولا يدخل فيها عصاة المؤمنين، واستدل على هذا التفسير بالآية السابقة لها.

ومن الأمثلة على السياق اللاحق:

ما روي عن معمر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] متى يكون ؟ قال قتادة: " يوم القيامة ألا ترى أنه يقول : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (المائدة: ١١٩).(١)

فقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ : التي أتت عقب الآية المسئول عنها، ففسرت وقت الحدث بأنه يوم القيامة.

ثالثاً: أنواع السياق من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي:

فإن السياق قرينة من القرائن المؤثرة في معنى الخطاب مما له علاقة بالخطاب ذاته، وهو في بعض الأحيان يكون بارزاً لا يحتاج إلى كثير من النظر والتدبر ليظهر، وأحيانا يحتاج إلى شيء من ذلك، وهذه القرينة إما أن تكون من داخل التشكيل النصي أو خارجه، وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم السياق إلى قسمين هما "(٢) :

أ – السياق اللغوي ويُطلق عليه كذلك: السياق اللفظي ، وسياق النظم، وسياق النص، وسياق المقال.

ب – السياق غير اللغوي ويطلق عليه كذلك: السياق المعنوي ، وسياق الحال، وسياق المقام).

= غير إسحاق بن موسى الأنصاري، فمن رجال مسلم"، كما صححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ج١٠ ص٤٥٠، برقم (٧٤٤٠).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ج٢ ص٣٨، برقم (٧٦٦)، بإسناد صحيح، انظر موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بن بشير بن ياسين ج٢ ص٢٢٣.

(٢) ما بين العلامتين من السياق غير اللغوي وأثره في توجيه المعنى في تفسير ابن عطية لصالح هزلة ص ١٦.

أما السياق اللغوي : فهو الذي يرتبط بالقرائن اللغوية التي يتضمنها الدليل ويُستدل بها على مدلوله من جهة اللفظ والمعنى لتحديد المعنى اللغوي، أو ما يعبر عنه بالمعنى النحوي أو الوظيفي للجملة الذي قد تتعدد احتمالات دلالاته فيصيح بحاجة إلى اعتبار القرائن لرفع تلك الاحتمالات وتحديد المعنى المراد.(١)

ويمكن تعريف السياق اللغوي بـــ : "السياق الذي تمثله بنية التراكيب اللغوية بأصواتها، وكلماتها، وجملها، وعباراتها".(٢)

وأما السياق غير اللغوي : فهو الذي يعتمد على القرائن غير المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب أو مقتضى الحال، ويشتمل على عناصر متعددة تتصل بالمخاطَب والمخاطِب وسائر الملابسات التي تحيط بالخطاب، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظة في اللغة، كاختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة في القرآن الكريم حيث تذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في مقامات مغايرة حسب مقتضيات الأحوال.(٣)

ويمكن تعريفه على النحو التالي :

السياق غير اللغوي هو : "ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء كانت قرائن في الخطاب ذاته، أو في المتكلم أو في المخاطب أو في الجميع".(٤)

أو هو السياق الذي يشير إلى النواحي المباشرة للنص والتي تمكن ملاحظتها أثناء حدوث الكلام مثل الإطار والمشاركين والنشاطات التي وقعت فيه "(٥) .

---

(١) السياق غير اللغوي وأثره في توجيه المعنى في تفسير ابن عطية ص١٦.

(٢) فصول في علم الدلالة لفريد عوض حيدر ص١١٩.

(٣) السياق غير اللغوي وأثره في توجيه المعنى في تفسير ابن عطية ص١٦.

(٤) نظرية السياق دراسة أصولية لنجم الدين قادر كريم الزنكي ص٦٣.

(٥) المرجع السابق.

يقول الدكتور تمام حسن: "وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية، ومفرداتها المعجمية، وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية، كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد، ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق" (١).

ويقول الدكتور نعمان جغيم : "سياق الخطاب على نوعين:

أ – السياق اللغوي، أي: الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تفسيره واستخلاص المقصود منه .

ب – السياق الاجتماعي، وهو الذي يسمى بالمقام، ثم بين مراده بالسياق الاجتماعي "المقام" بأنه : حصيلة الظروف الاجتماعية والطبيعية والنفسية السائدة وقت صدور الخطاب، والتي يُتوقع أن يكون لها تأثير في صيغة الخطاب وتوجيهه وفهمه".(٢)

ومن الأمثلة التي تبين لنا أثر السياق غير اللغوي في تفسير النص:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾ (المائدة:٩٣)، فإن هذه الآية الكريمة لما جاءت عقب ذكر الخمر وتحريمها، صار ظاهرها يشعر برفع الحرج عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما شاءوا أن يأكلوا أو يشربوا ولو كان خمرا، وهذا فهم غالط للآية مرده عدم الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة؛ إذ سبب نزول الآية الكريمة فيما قال ابن عباس(٣) والبراء بن عازب(١)

---

(١) البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني للدكتور تمام حسن ص٢٢١.

(٢) طرق الكشف عن مقاصد الشارع للدكتور نعمان جغيم ص٩٢ــ٩٥ بتصرف.

(٣) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره ج١٠ ص٥٧١، برقم (١٢٥٢٢)، والنسائي في (سننه الكبرى، كتاب التفسير، سورة المائدة، باب قوله تعالى: {إنما الخمر والميسر} ج١٠ ص٨٥، برقم (١١٠٨٦)، والطبراني في المعجم الكبير جـ ١٢ ص٥٦، برقم (١٢٤٥٩)، والحاكم في المستدرك

وأنس بن مالك [٢] – رضي الله عنهم – : أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة : يا رسول الله ، كيف بمن مات وهو يشربها، فنزلت هذه الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ ..الآية ﴾ .

= جـ ٤ ص١٥٨، برقم (٧٢١٩)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى إذا نملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته فيقول: قد فعل هذا بي أخي – وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا فوقعت في قلوبهم الضغائن فأنزل الله عز وجل: (إنما الخمر والميسر) إلى قوله: (فهل أنتم منتهون) فقال ناس: هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر وفلان قتل يوم أحد فأنزل الله عز وجل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات). وقد صحح الحاكم هذا الحديث في مستدركه فقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في التلخيص، كما صححه الدكتور حكمت بشير ياسين في موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ج٢ ص٢٠٩،٢١٠.

(١) أخرج الترمذي في (سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ، باب ومن سورة المائدة ج٥ ص٢٥٤، برقم (٣٠٥٠)) عن البراء بن عزب ـ رضي الله عنه ـ قال: مات رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم قبل أن تحرم الخمر فلما حرمت الخمر قال رجال كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر ؟ فنزلت {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات}. وقد الترمذي عن هذا الحديث حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج٧ ص١٤٢٣.

(٢) أخرج البخاري في (صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة ج٤ ص١٦٨٨، برقم (٤٣٤٤)) ومسلم في (صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، وبيان أنها تكون من عصير العنب، ومن التمر والبسر والزبيب، وغيرها مما يسكر ج٣ ص١٥٧٠، برقم (١٩٨٠)) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر مناديا فنادى فقال أبو طلحة اخرج فانظر ما هذا الصوت ؟ قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت فقال لي اذهب فأهرقها قال فجرت في سكك المدينة، قال وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم قال فأنزل الله {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا}.

والفضيخ: شراب يتخذ من البسر المفضوخ من الفضخ وهو كسر الشيء الأجوف والبسر نوع من التمر.

وقد تأول هذه الآية قدامة بن مظعون – رضي الله عنه – عند مثوله أمام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كي يُقام عليه حد الخمر، فقال لعمر – رضي الله عنه – : "لم تجلدني بيني وبينك كتاب الله قال عمر وأي كتاب الله تجد أن لا أجلدك قال له إن الله يقول في كتابه "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا" الآية فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا شهدت مع رسول الله – صلى الله عليه و سلم – بدرا وأحدا والخندق والمشاهد فقال عمر ألا تردون عليه ما يقول فقال ابن عباس إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين وحجة على الباقين فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر وحجة على الباقين لأن الله يقول { يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان } الآية ثم قرأ أيضا الآية الأخرى فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر فقال عمر صدقت فما ترون فقال هل إنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذي وإذا هذي افترى وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين".(١)

فمعنى الآية الكريمة لا يرفع الحرج عن الذين آمنوا في كل ما طعموا، وإنما المعنى على حسب سبب النزول لا حرج على المؤمنين الذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا على ذلك.

وسبب النزول هذا الذي فسرنا على أساسه الآية الكريمة من جملة السياق غير اللغوي.

ومن الأمثلة التي تبين لنا أثر السياق اللغوي أو السياق اللفظي في تفسير الآية:

قوله تعالى: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ فقد اختلف المفسرون في المراد بدار المتقين في الآية الكريمة على قولين :

أحدهما: أنها الدنيا، وهو قول الحسن (٢)، وسميت بدار المتقين على هذا القول لأن أهل

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الحد في الخمر، باب إقامة الحد على من شرب الخمر على التأويل ج٥ ص١٣٧، برقم (٥٢٧٠)، والحاكم في المستدرك ج٤ ص٤١٧، برقم (٨١٣٢)، وقال "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) نسب هذا القول للحسن البصري الإمام ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير ج٢ ص٥٥٨.

التقوى يتزودون فيها للآخرة بالأعمال الصالحة التي ينالوا بها ثواب الآخرة [١] .

الثاني : أنها الجنة، وهو قول الجمهور.[٢]

والسياق يرجح القول الثاني من هذين القولين أن المراد بها الجنة، وذلك لأنه سبحانه بعد أن قال: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ فسر هذه الدار في الآية التي بعدها فقال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾ (النحل:٣١)، وعليه فحمل الآية على هذا التفسير أولى وأحسن لأنه أوفق للنظم وأليق بالسياق.

ومن الأمثلة التي اجتمع فيها سياق النص وسياق المقام في ترجيح تفسير أو معنى معين من مجموعة من التفسيرات أو المعاني:

قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ (البقرة:٢٢٣)

فقد اختلف المفسرون في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ على أقوال:

فقال بعضهم : معنى أنى : " كيف "... وقال آخرون : معنى: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ متى شئتم... وقال آخرون بل معنى ذلك : أين شئتم وحيث شئتم... وقال آخرون: معنى ذلك: ائتوا حرثكم كيف شئتم ، إن شئتم فاعزلوا ، وإن شئتم فلا تعزلوا".[٣]

وقد ذكر هذه الأقوال السابقة الإمام الطبري ــ رحمه الله ــ ثم ذكر ما رآه راجحاً بقوله : "والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال معنى قوله: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ : من أي وجه شئتم"، ثم استدل لصحة قوله باستعمال العرب لتلك الكلمة، وتتبع استعمالها في القرآن، واعتبار السياق المقامي، وذلك باعتبار حال المخاطَبين عند نزولها مستشهداً بالسبب الذي نزلت فيها [٤] ، ثم أتى إلى ذكر دلالة السياق المقالي على صحة تفسيره قائلاً: "فمعلوم أن

---

(١) معالم التنزيل للبغوي جـ ٥ ص ١٧ .

(٢) زاد المسير جـ ٢ ص ٥٥٨ .

(٣) ينظر تفصيل هذه الأقوال في جامع البيان للطبري جـ ٤ ص ٣٩٨ ــ ٤٠٨ .

(٤) في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها :

١ – ما روي عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: " كانت اليهود تقول إذا جامعها

معنى قول الله تعالى ذكره ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ إنما هو: فأتوا حرثكم من حيث شئتم من وجوه المأتى، وأن ما عدا ذلك من التأويلات فليس للآية بتأويل، وإذ كان ذلك هو الصحيح فبيِّنٌ خطأ قول من زعم أن قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ دليل على إباحة إتيان النساء في الأدبار ؛ لأن الدبر لا يحترث فيه ، وإنما قال تعالى ذكره : ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ فأتوا الحرث من أي وجوهه شئتم، وأي محترث في الدبر وبيِّنٌ بما بينا، صحةُ معنى ما روي عن جابر من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين : " إذا أتَى الرجلُ المرأةَ من دُبرها في قُبُلها، جاء الولد أحول " [١][٢].

= من ورائها جاء الولد أحول فنزلت ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ . (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب { نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم } جـ ٤ ص ١٦٤٥، برقم (٤٢٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها، من قدامها، ومن ورائها من غير تعرض للدبر جـ ٢ ص ١٠٥٨،١٠٥٩، برقم (١٤٣٥) وزاد: في حديث النعمان، عن الزهري: "إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غير أن ذلك في صمام واحد " .

٢ – ما روي عن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: لما قدم المهاجرون المدينة على أنصار تزوجوا من نسائهم وكان المهاجرون يجبون وكانت الأنصار لا تجبي فأراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك فأبت عليه حتى تسأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالت: فأتته فاستحيت أن تسأله فسألته أم سلمة فنزلت ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ وقال: "لا إلا في صمام واحد" (أخرجه أحمد في مسنده ج٤٤ ص٢٩٦، برقم (٢٦٦٩٩)، وحسن إسناده الشيخ الأرنؤوط في تعليقه على المسند).

ولا مانع أن تكون الآية نزلت في هذا وهذا. (ينظر الصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادي الوادعي ص٣٤،٣٥)، وهناك روايات أخرى ذكرها الإمام الواحدي في أسباب النزول ص٧٥ – ٨١ .

(١) جامع البيان للطبري ج٤ ص٤١٥،٤١٦.

(٢) إرشادات السياق في فهم الخطاب القرآني "دراسة أصولية" للدكتور بختيار نجم الدين شمس الدين ص ١٧،١٨.

المبحث الثاني

آثار دلالة السياق القرآني في التفسير

لدلالة السياق القرآني آثار كثيرة في التفسير، وهذا مما يزيد في أهميتها، ومن آثارها في التفسير ما يلي :

١ – بيان المجمل :

عرف الإمام الآمدي – رحمه الله – المجمل بأنه: "ما له دلالة على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه".(١)

وعرفه ابن الحاجب – رحمه الله – بأنه : "ما لم تتضح دلالته".(٢)

وقال القفال الشاشي، وابن فورك هو: "ما لا يستقل بنفسه في المراد منه، حتى بيان تفسيره".(٣)

وقد ذكر ابن دقيق العيد – رحمه الله – أن السياق يرشد إلى تبيين المجملات، فقال: "السياق يقع به التبيينُ والتعيينُ، أما التبيين: ففي المُجْمَلات، وأما التعيين: ففي المُحْتَمِلات، فعليك باعتبار هذا في ألفاظ الكتاب والسنة والمحاورات، تجدْ منه ما لا يمكنك حصرُه قبل اعتباره".(٤)

كما أكد على هذا الأمر أيضا الإمام ابن القيم – رحمه الله – فقال : "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي جـ ٣ ص ٩ .

(٢) مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب ص ١٤٠ .

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي جـ ٥ ص ٥٩ .

(٤) شرح الإلمام بأحاديث الأحكام لابن دقيق العيد جـ ٥ ص ١٣ .

وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته".[١]

ومن الأمثلة التي تدلل على ذلك ما يلي:

١ – لفظ الصاعقة من الألفاظ المجملة، وهي أحيانا تجيء بمعنى الموت، وأحيانا تجيء بمعنى الإغماء، ولا تتضح دلالتها، ولا يظهر المراد منها إلا بالسياق.

ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)﴾ (البقرة:٥٥)، المراد بها الموت، والذي أرشدنا إلى ذلك السياق لأن الله ــ تبارك وتعالى ــ يقول عقب الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ (البقرة:٥٦)، والبعث إنما يكون بعد الموت.

وأما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا ﴾ (الأعراف:١٤٣)، فالمراد بها الإغماء، وقد أرشد إلى هذا أيضا السياق، فإنه سبحانه قال بعدها: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ (الأعراف: ١٤٣) ، والإفاقة لا تكون عن الموت .

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله – عند تفسيره لقوله – تعالى – ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)﴾: "ومعنى «الصاعقة»: ما يُصعقون منه، أي: يموتون، ومن الدليل على أنهم ماتوا، قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ ﴾ هذا قول الأكثرين.

وزعم قوم أنهم لم يموتوا، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً ﴾ وهذا قول ضعيف، لأن الله – تعالى – فرق بين الموضعين، فقال هناك: ﴿ فَلَمَّا أَفاقَ ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ ﴾ والإفاقة للمغشي عليه، والبعث للميت".[٢]

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ج٤ ص١٣١٤.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ج١ ص٦٧.

٢ – قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ (البقرة:٢٢٣)

فقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ، من المجمل الذي لم تتضح دلالته، ولهذا اختلف المفسرون في بيان معناه، فقال بعضهم: معنى أنى: "كيف"... وقال آخرون: معنى: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ متى شئتم... وقال آخرون بل معنى ذلك : أين شئتم وحيث شئتم... وقال آخرون : معنى ذلك: ائتوا حرثكم كيف شئتم، إن شئتم فاعزلوا، وإن شئتم فلا تعزلوا".(١)

وقد ذكر هذه الأقوال السابقة الإمام الطبري –رحمه الله– ثم ذكر ما رآه راجحاً بقوله: "والصواب من القول في ذلك عندنا قول من قال معنى قوله: ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾: من أي وجه شئتم"، ثم استدل لصحة قوله باستعمال العرب لتلك الكلمة، وتتبع استعمالها في القرآن، واعتبار السياق المقامي، وذلك باعتبار حال المخاطَبين عند نزولها مستشهداً بالسبب الذي نزلت فيها(٢)، ثم أتى إلى ذكر دلالة السياق المقالي على صحة تفسيره قائلاً: "فمعلوم أن معنى قول الله تعالى ذكره ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ إنما هو: فأتوا حرثكم من حيث شئتم من وجوه المأتى، وأن ما عدا ذلك من التأويلات فليس للآية بتأويل، وإذ كان ذلك هو الصحيح فبيِّنٌ خطأ قول من زعم أن قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ دليل على إباحة إتيان النساء في الأدبار؛ لأن الدبر لا يحترث فيه، وإنما قال تعالى ذكره: ﴿ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ فأتوا الحرث من أي وجوهه شئتم، وأي محترث في الدبر "(٣)(٤) .

---

(١) ينظر تفصيل هذه الأقوال في جامع البيان للطبري ج٤ ص٣٩٨ــ ٤٠٨.

(٢) تقدم ذكر سبب النزول ص.

(٣) جامع البيان للطبري ج٤ ص٤١٥،٤١٦.

(٤) إرشادات السياق في فهم الخطاب القرآني "دراسة أصولية" للدكتور بختيار نجم الدين شمس الدين ص١٧،١٨.

٢ – الترجيح بين الأقوال المحتملة في التفسير.

كثيراً ما يَرِدُ في تفسير لفظة أو آية قرآنية أكثر من قول، وهذه الأقوال تكون محتملة في تفسير اللفظة أو الآية، إلا أن السياق يرجح ويعين واحدا منها، فينبغي حمل اللفظة أو الآية عليه، وتفسيرها به.

وقد سبق ذكر كلام كثيرٍ من العلماء في أهمية السياق وأنه مرشد إلى تعيين المحتملات والترجيح بينها.(١)

يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام – رحمه الله – : "وقد يتردد التفسير بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض ، ويترجح بعضها على بعض، وأولى الأقوال ما دل عليه الكتاب في موضع آخر ، أو السنة ، أو إجماع الأمة، أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى".(٢)

ومن الأمثلة التي تبين لنا دور السياف في الترجيح بين الاحتمالات والوجوه ما يلي :

١ – قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ (آل عمران : ٣٩) .

ففي هذه الآية الكريمة وصف الله – عز وجل – يحيى بن زكريا – عليهما السلام – بأوصاف جليلة، ومن هذه الأوصاف وصفه بأنه كان حصوراً، وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الكلمة على قولين:

أحدهما: أن حصور فعول بمعنى مفعول، أي أنه محصور لا يأتي النساء، كأنه ممنوع

(١) تقدم ذكر أقوال العلماء في ذلك.

(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد السلام ص٢٢٠ بتصرف.

مما يكون في الرجال.

الثاني : أن الحصور في الآية الكريمة معناه: أنه الذي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة.(١)

وكلا التفسيرين محتملان إلا أن السياق يرجح الثاني منهما، وذلك لأن السياق سياق ثناء ومدح ليحيى – عليه السلام – ، فقد مدحه الله – عز وجل – ووصفه في الآية الكريمة بصفات، فوصفه بأنه مصدق بكلمة من الله، والمراد تصديقه بعيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ في قول أكثر المفسرين، كما وصفه بأنه سيد قد ساد قومه في العلم والشرف، وبأنه نبي من الصالحين، والصفات المذكورة كلها صفات حميدة جليلة، فكيف يأتي خلالها صفة هي إلى الذم أقرب منها إلى المدح، لهذا يترجح أن الحصور في الآية الكريمة معناه: أنه الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصرا لنفسه أي منعا لها عن الشهوات عفة وزهدا واجتهادا في الطاعة.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: " (وحصورا) أصله من الحصر وهو الحبس، حصرني الشيء وأحصرني إذا حبسني. ظظ

والحصور الذي لا يأتي النساء كأنه محجم عنهن .... ، فيحيى – عليه السلام – حصور، فعول بمعنى مفعول لا يأتي النساء، كأنه ممنوع مما يكون في الرجال، وفعول بمعنى مفعول كثير في اللغة، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة، قال الشاعر :

فيهـــا اثنتـــان وأربعـــون حلوبـــة سـودا كخافيـة الغـراب الأسـحم (٢)

وقيل: هو الذي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. وهذا أصح الأقوال لوجهين: أحدهما: أنه مدح وثناء عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٤ ص٧٧،٨٧.

(٢) هذا البيت قاله عنترة بن شداد في معلقته. انظر ديوانه ص٨٠.

في الغالب. الثاني أن فعولا في اللغة من صيغ الفاعلين، كما قال :

ضـــروب بنصـــل الســـيف ســـوق سمانهـــا إذا عـــــدموا زادا فإنـــــك عـــــاقر [١]

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات".[٢]

٢ – اختلف المفسرون في نبوة "ذي الكفل" الوارد اسمه في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ (الأنبياء:٨٥)، على قولين :

أحدهما : أنه ليس بنبي، وهو ما ذهب إليه أبو موسى الأشعري[٣] ومجاهد[٤] وغيرهما.

والثاني : أنه نبي من أنبياء الله – عليهم السلام – ، وهو ما ذهب إليه الأكثرون.[٥]

والقولان محتملان، إلا أن الظاهر من سياق الآيات أنه نبي، إذ السياق يتحدث عن الأنبياء – عليهم السلام – وقد قرن اسمه باسمهم.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله: "وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل ــ عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس – عليه السلام، وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي".[٦]

ويقول الإمام الألوسي – رحمه الله: "وظاهر نظم ذي الكفل في سلك الأنبياء –

---

(١) البيت قاله أبو طالب عم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ، انظر ديوانه ص٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٤ ص٧٧،٧٨ بتصرف.

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره ج٢ ص٣٩٠، برقم (١٨٨٢) عن أبي الدرداء بإسناد ضعيف، وذلك لانقطاع السند بين قتادة وأبي الدرداء فإن قتادة لم يدرك أبا الدرداء – رضي الله عنه – ولم يسمع منه.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ج١٨ ص٥٠٩، عن مجاهد بإسناد صحيح. انظر الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ياسين ج٣ ص٣٩٣.

(٥) روح المعاني للألوسي ج٩ ص٧٨.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص٣١٩.

عليهم السلام – أنه منهم وهو الذي ذهب إليه الأكثر".[١]

٣ – تخصيص العام :

من الفوائد التي نجنيها من السياق والتي أشار إليها الإمام الزركشي في البرهان[٢] تخصيص العام[٣] ، وهو : " إخراج بعض ما يتناوله اللفظ "[٤] .

ومن المعلوم أنه لا يجوز لأحد أن يُخصصَ عمومَ الألفاظِ إلا بدليل؛ كما قال الإمامُ الطبري – رحمه الله: "وليس لأحد أن يجعل خبرًا جاء الكتاب بعمومه، في خاصٍّ مما عمه الظاهر، بغير برهان من حجة خبر أو عقل".[٥]

"فالتخصيص لابد له من دليل يستند إليه ، ومن هذه الأدلة السياق المستند إلى النقل من حيث مصدره، وإلى العقل من حيث فهم وجه تخصيصه".[٦]

ومن الأمثلة التي توضح لنا هذه الفائدة ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ (آل عمران:١٧٣)

فكلمة الناس عام أريد به الخاص وقد دل على ذلك السياق، السياق المقالي والمقامي، أما السياق المقالي فلأن الناس المخبرين ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ هم غير الناس

---

(١) روح المعاني للألوسي ج٩ ص٧٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ ص٢٠٠،٢٠١.

(٣) العام: لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد. (ينظر منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي ص١٢١).

(٤) المرجع السابق ص١٢٣.

(٥) جامع البيان للطبري ج١٣ ص١٣٤.

(٦) ما بين العلامتين من السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي للمثنى عبد الفتاح محمود ص١٩٩.

الجامعين ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ .

وأما السياق المقامي أو الحالي فهو أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان معه جمع يقاتل عنه وعن رسالته، فظاهر أن الناس الجامعين هم غير الناس المجتمعين على الرسول، فإذن أخرجت دلالة السياق من عموم الناس الأناس المخبرين، والناس المدافعين عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما أن الناس المخبرين لم يكونوا كل الناس بدلالة خروج الناس الجامعين عنهم.(١)

يقول الإمام الشافعي – رحمه الله: "فإذْ كان مَن مع رسول الله ناساً غيرَ مَن جمَعَ لهم من الناس، وكان المخبرون لهم ناساً غيرَ مَن جُمِع لهم، وغيرَ من معه ممن جُمِع عليه معه، وكان الجامعون لهم ناساً، فالدلالة بيِّنة مما وصفت من أنه إنما جمع لهم بعضُ الناس دون بعض .

والعلم يحيط أنْ من لم يَجمع لهم الناسُ كلهم، ولم يُخبرهم الناسُ كلهم، ولم يكونوا هم الناسَ كلَّهم.

ولكنه لما كان اسم الناس يقع على ثلاثة نفر، وعلى جميع الناس، وعلى مَن بين جمعهم وثلاثةٍ منهم، كان صحيحاً في لسان العرب أن يقال: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ (١٧٣) ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وأن يقال: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ (١٧٣) ﴾ ، يعنون المنصرفين عن أُحُدٍ.

وإنما هم جماعة غيرُ كثير من الناس، الجامعون منهم، غيرُ المجموع لهم، والمخبرون للمجموع لهم غيرُ الطائفتين، والأكثر من الناس في بلدانهم غيرُ الجامعين، ولا المجموع لهم ولا المخبرين.".(٢)

---

(١) نظرية السياق "دراسة أصولية" للدكتور نجم الدين قادر كريم الزنكي ص١٥٥، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت.

(٢) الرسالة للشافعي ج١ ص٥٨.

٢ – قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ (المائدة:٦٧).

فلفظ الناس في الآية الكريمة عام، ولكن لا يراد به عموم الناس، وإنما يراد به صنف خاص من الناس وهم الكفار، وقد أرشدنا إلى ذلك السياق، وذلك أن الله – تبارك وتعالى – قال: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، والعصمة بمعنى الوقاية تؤذن بخوف عليه، وإنما يخاف عليه أعداءه لا أحباءه، وليس في المؤمنين عدو لرسوله " [١] ، كما أن الله – عز وجل – ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وليس المراد بها عدم هدايتهم إلى الدين، وإنما المراد عدم تمكينهم مما يريدون .

يقول الإمام الرازي – رحمه الله – عند تفسيره للآية الكريمة : " واعلم أن المراد من الناس هاهنا الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، ومعناه أنه تعالى لا يمكنهم مما يريدون". [٢]

وقال الإمام الألوسي – رحمه الله : " قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإن الناس فيه وإن كان عاما إلا أن المراد بهم الكفار، ويهديك إليه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ﴾ ، فإنه في موضع التعليل لعصمته – عليه الصلاة والسلام". [٣]

وقال الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله : " ثم قال تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ليتبين أن المراد بالناس كفارهم، وليومئ إلى أن سبب عدم هدايتهم هو كفرهم، والمراد بالهداية هنا تسديد أعمالهم وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله بأن أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلا لكيد الرسول والمؤمنين لطفا منه تعالى، وليس المراد

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٦ ص٢٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ج١٢ ص٤٠١.

(٣) روح المعاني للألوسي ج٣ ص٣٦٣.

الهداية في الدين لأن السياق غير صالح له".[١]

٤ – تقييد المطلق :

قد سبق النقل من كلام علمائنا – رحمة الله عليهم – أن السياق له أثر في تقييد المطلق[٢]، ولكن لابد أن نشير إلى أننا نتكلم عن المطلق الذي لم يقترن به القيود الدالة على التقييد كالصفة والحال والشرط والظرف وغيرها؛ لأن السياق المقترن بتلك القرائن يقيد بسببها، وهو نفس ما أشرنا إليه في مسألة تخصيص العموم بدلالة السياق أيضاً.

مثال ذلك ما يلي :

١ – قوله تعالى في شأن أصحاب الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ (الكهف:٢٥) ، فلفظ : {تِسْعًا" لفظ مطلق عن القيد، وهو يصدق صدقاً بدلياً عن كل من : "تسع سنوات" و" تسعة أشهر" و"تسعة أيام" لكن السياق قيد هذا المطلق ، ودلَّ على أن المراد به " تسع سنوات"، لوروده بعد قوله : ﴿ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ﴾ [٣] .

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٦ ص٢٦٤.

(٢) ذكر العلماء تعريفات كثيرة للمطلق منها:
المطلق: هو ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي. (شرح تنقيح الفصول لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي ص٢٦٦) .
وقال ابن قدامة هو: المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه. (روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن قدامة المقدسي ج٢ ص١٠٢) .
وقال ابن فارس: أما الإطلاق: فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة، ولا شرط، ولا شيء يشبه ذلك". (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس ص١٤٦) .
وعند الآمدي: المطلق هو "النكرة في سياق الإثبات". (الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن الآمدي ج٣ ص٣).

(٣) إرشادات السياق في فهم الخطاب القرآني دراسة أصولية للدكتور بختيار نجم الدين شمس الدين ص٣٧.

٢ – قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج:٢٩).

فقد أمر الله – عز وجل – في الآية الكريمة بالطواف مطلقاً، فيحتمل أن يُراد بهذا الطواف طواف الإفاضة أو الركن، ويسمى كذلك طواف الزيارة، ويحتمل أن يراد به طواق القدوم، لكن السياق يقيد هذا الطواف بطواف الإفاضة، وذلك أن الله ــ عز وجل ــ أمر بذبح الهدايا، بقوله ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٧) ﴾ (الحج:٢٧)، ثم أمر بقضاء التفث ــ وهو الحلق ــ، والطواف بالبيت عقيب ذبح الهدي؛ وكلمة "ثم" تفيد الترتيب مع التعقيب، فيقتضي أن يكون الحلق والطواف مرتبين على الذبح، والذبح يختص بأيام النحر، ولا يجوز قبلها، فكذا الحلق والطواف، وهو طواف الزيارة، فأما طواف القدوم فإنه يكون سابقا على أيام النحر، فثبت أن المراد من الآية طواف الإفاضة.

قال الإمام أبو بكر الجصاص – رحمه الله : " قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فرُوى عن الحسن أنه قال وليطوفوا طواف الزيارة [١]، وقال مجاهد الطواف الواجب [٢] .

قال أبو بكر ظاهره يقتضي الوجوب لأنه أمر والأوامر على الوجوب ، ويدل عليه أنه أمر به معطوفا على الأمر بقضاء التفث ولا طواف مفعول في ذلك الوقت وهو يوم النحر بعد الذبح إلا طواف الزيارة فدل على أنه أراد طواف الزيارة .

فإن قيل يحتمل أن يريد به طواف القدوم الذي فعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه حين قدموا مكة وحلوا به من إحرام الحج وجعلوه عمرة إلا رسول

---

(١) رواه الطبري في تفسيره جـ ١٨ ص ٦١٦ .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور جـ ٦ ص ٤٠ لعبد بن حميد وابن أبي حاتم .

الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه قد كان ساق الهدي فمنعه ذلك من الإحلال ومضى على حجته.

قيل له لا يجوز أن يكون المراد به طواف القدوم من وجوه: أحدها: أنه مأمور به عقيب الذبح وذبح الهدي إنما يكون يوم النحر لأنه قال: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ (الحج:٢٨،٢٩)، وحقيقة ثم للترتيب والتراخي وطواف القدوم مفعول قبل يوم النحر فثبت أنه لم يرد به طواف القدوم".(١)

٥ – دفع إيهام الإشكال في القرآن الكريم

لا شك أن معرفة المشكل من آيات القرآن الكريم، وطرق دفع هذا الأشكال مهمة للغاية.

وتنبع هذه الأهمية من أن الإشكال الطارئ على قارئ القرآن يحول بينه وبين التدبر للآيات، وقد أمر الله – عز وجل – بتدبر القرآن فقال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء:٨٢)، وقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ (ص:٢٩)، وقال عز وجل: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ (محمد:٢٤).

والتدبر لا يكون إلا بفهم المعاني، وفهم المعاني هو غاية علم التفسير، من هنا وجب الاعتناء بهذا العلم إذ هو أحد فروع علم التفسير، وبذلك يتبين أنه لا غنى للمفسر عن دراسة أسس هذا العلم ليتعرف على أسباب الوقوع في المشكل القرآني فيحذرها، ويتعرف على طرق دفع المشكل فيسلكها.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ج٥ ص٧٤ بتصرف.

وفي دراسة هذا العلم فوائد عظيمة منها:

أنه سبيل إلى زيادة الإيمان، إذ تطمئن النفس إلى معاني كتاب الله تعالى، وأنها حق لا اختلاف فيها ولا تضاد، وكفى بعلم شرفا يزداد صاحبه به إيمانا.

وفي دراسة هذا العلم رد على الزنادقة، كما فعل الإمام أحمد في كتابه الرد على الزنادقة والجهمية، حيث قام في صدر كتابه بالجمع والتأليف بين آيات أدعي عليها هؤلاء الزنادقة التعارض.(١)

وكذلك فعل الإمام ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" حيث يقول : " قد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن، وفساد النظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور ... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألّفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملا ما أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب، لأري المعاند موضع المجاز، وطريق الإمكان، من غير أن أحكم فيه برأي، أو أقضي عليه بتأويل، ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير، إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته. وعلى إيمائهم حتى أوضحته، وزدت في الألفاظ ونقصت، وقدّمت وأخّرت، وضربت لذلك الأمثال والأشكال، حتى يستوي في فهمه السامعون "(٢)(٣) .

(١) راجع كتاب الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل ص٧ــ ١٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤.

(٣) مشكل القرآن الكريم لعبد الله بن حمد المنصور ص٢٣، ٢٤ بتصرف.

وقد قرر العلماء أن هذا الأشكال الذي يقع في بعض آيات القرآن الكريم أمر نسبي فقد تشكل على بعض المفسرين آية من القرآن، ولا تشكل على آخرين.

كما قرر العلماء أن هناك العديد من الوسائل والطرق[١] التي ينبغي أن يسلكها المفسر لدفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم، ومن هذه الطرق والوسائل النظر في السياق .

وقد أشار الإمام الزركشي – رحمه الله – إلى ذلك فقال: " ومما يعين على المعنى عند الإشكال أمور منها: دلالة السياق فإنها ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته".[٢]

ومن الأمثلة التي تبين لنا دور السياق في دفع الإشكال بين آيات القرآن ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ (النحل:٢٥)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ (العنكبوت:١٣)، فهاتان الآيتان الكريمتان يوهم ظاهرهما التعارض مع آيات أخرى في القرآن الكريم حيث إنهما تدلان على أن الضالين يحملون أثقالهم وأوزارهم كاملة يوم القيامة، ويحملون أيضا من أوزار الأتباع الذين أضلوهم، وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه لا يحمل أحد وزر غيره، كقوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (فاطر:١٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام:١٦٤)، وقوله: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الإسراء:١٥).

---

(١) راجع هذه الطرق والوسائل في المرجع السابق ص٣٣٣ – ٤٠٨ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ٢ ص ١٩٩، ٢٠٠ بتصرف.

ونزيل هذا الأشكال الحاصل بين الآيات عن طريق السياق فإن الآيتين الأوليتين في سياق الحديث عن الضالين الداعين إلى ضلالتهم، فبين – سبحانه – أنهم عليهم إثمهم وإثم من يضلونهم، وأما الآيات الأخرى فهي في الضالين غير الداعين إلى ضلالتهم فإنهم يحملون إثم ضلالتهم فقط.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء:١٥): "يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ومن ضل أي عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ [فاطر: ١٨] ولا منافاة بين هذا وبين وقوله: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (النحل: ٢٥) فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك[١]، ولا يحمل عنهم شيئا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده".[٢]

٢ – قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ (البقرة:١١٤)، فإن ظاهر هذه الآية الكريمة يوهم التعارض مع آيات

---

(١) يدل على هذا ما أخرجه مسلم في (صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ج٤ ص٢٠٦٠، برقم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، قال: "من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا".

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص٤٩.

أخرى في القرآن الكريم، حيث إن معنى الآية: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وقد جاءت آيات أخر يفهم منها خلاف هذا، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الأنعام:١٤٤)، وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ ﴾ (الزمر:٣٢) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ربه ﴾ (الكهف:٥٧) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأشهر طرق الجمع بين هذه الآيات هو عن طريق السياق وذلك بتخصيص كل موضع من هذه المواضع بمعنى صلته ، أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا، وكذلك باقيها وإذا تخصص بالصلات زال عنه التناقض والإشكال (١) .

٦- يضبط التفسير بالرأي ويمنع من تأويل النص تأويلا غير سائغ.

مراعاة السياق من الأمور التي ينبغي أن يلتزم بها من يُقدم على تفسير القرآن الكريم بالرأي، كما يقول الإمام الزرقاني – رحمه الله : "يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره وأن يتذرع بكل العلوم التي نوهنا بها ليكون قد أصاب المراد أو كاد ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد باتباع ما يأتي :

أولا : أن يطلب المعنى من القرآن فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله شاهدوه حين نزل فوق ما امتازوا به من علم وعمل وخير ما فسرته بالوارد.

ثانيا : إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعا ما يأتي : ... مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص٧٤،٧٥، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٣ ص٩٨، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي ص٢١.

الواحدة وبين الآيات بعضها وبعض، ومراعاة المقصود من سياق الكلام".[١]

ويقول الشيخ عبد الله محمد صديق الغماري – رحمه الله : "يجب على المتصدي لتفسير القرآن الكريم أن يتجرد من الآراء المذهبية، ويوطن نفسه على تقبل ما تفيده الآية ، وتدل عليه، ويرجع عما كان يراه أو يعتقده بخلافها، لأن القرآن حجة الله على خلقه ، إليه يتحاكمون، وعن حكمه يصدرون ، ولا يجوز له أن يتمحل في تأويل الآية ، ويتطلب الوجوه البعيدة في الإعراب ، أو يحملها على المعاني التي لا تتفق مع سياقها ، أو سبب نزولها لتفيد رأي فلان ، أو عقيدة فلان، فإن هذا تحريف لكلام الله تعالى، وتغيير لمعانيه، وهو منشأ بدع التفاسير".[٢]

وإن الناظر في حال كثير من أهل الأهواء من الفرق الباطنية وغيرها من أصحاب العقائد المنحرفة، والأهواء الباطلة؛ يرى أنهم يلجؤون إلى تأويل الآيات القرآنية التي لا تتوافق مع معتقداتهم ومذاهبهم تأويلا باطلاً من أجل أن توافق مذاهبهم، والسياق له أهمية بالغة في منع هذه التفسيرات الباطلة والتأويلات الفاسدة وردها.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (النساء : ١٦٤) .

فإن سياق هذه الآية الكريمة فيه رد على المعتزلة الذين ينفون عن الله – تبارك وتعالى – صفة الكلام ، وذلك أن " العرب تسمى ما توصل إلى الإنسان: كلاما، بأي طريق وصل إليه، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حقق الكلام بالمصدر، لم تكن إلا حقيقة الكلام، وهذا كالإرادة، يقال: أراد فلان إرادة، فيكون حقيقة الإرادة، ولا يقال: أراد الجدار أن يسقط إرادة، وإنما يقال: أراد الجدار، من غير ذكر المصدر؛ لأنه مجاز، فلما

(١) مناهل العرفان للزرقاني ج٢ ص٥٩، ٦٠.

(٢) بدع التفاسير لعبدالله محمد صديق الغماري ص١١.

حقق الله كلامه موسى بالتكليم، عرف أنه حقيقة الكلام من غير واسطة".[١]

قال الإمام أبو إسحاق الزجاج – رحمه الله: "وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ؛ أخْبَرَ الله عزْ وجل بتخصيص نَبِي مِمن ذكر، فأعلم – عزَّ وجلَّ – أن موسى كُلِمَّ بغير وَحي، وأكد ذلك بقوله تكليماً، فهو كلام كما يعقلُ الكلام لا شك في ذلك".[٢]

٢ – قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ (الجن:٢٣).

هذه الآية الكريمة تمسك بها المعتزلة واستدلوا بها على خلود عصاة المؤمنين في النار، والسياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة يرد هذا القول ويبين أن المراد بهذه الآية الكفار.

يقول الإمام ابن جزي الكلبي – رحمه الله : " ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ جمع خالدين على معنى من يعص لأنه في معنى الجمع، والآية في الكفار، وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين لأن مذهبهم خلودهم في النار.

والدليل على أنها في الكفار وجهان: أحدهما أنها مكية والسورة المكية إنما الكلام فيها مع الكفار. والآخر دلالة ما قبلها وما بعدها على أن المراد بها الكفار".[٣]

ويقصِد ابن جُزَيٍّ بدلالة ما قبلها قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩)، ودلالة ما بعدها قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ (الجن: ٢٤).

---

(١) ما بين العلامتين من تفسير السمعاني ج١ ص٥٠٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٢ ص١٣٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ج٢ ص٤٢٠.

٧ – الترجيح بين معاني القراءات وتضعيف بعض القراءات أو ردها .

فالسياق له دور بارز في الترجيح بين معاني القراءات، وأعني بالترجيح بين معاني القراءات: ترجيح معنى القراءة المتواترة على معنى القراءة الشاذة، أما القراءات المتواترة فلا "يُرجح بينها وذلك لأنها كلها قراءات صحيحة ومروية ثابتة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية".(١)

والسياق له دور بارز كذلك في تضعيف بعض القراءات الشاذة أو ردها، أما القراءات المتواترة فلا "يجوز ردها أو رد معناها، بل يجب قبولها وقبول معناها، وكل طاعن أو راد لها أو لمعناها الذي تؤدي إليه فقوله رد عليه".(٢)

ومن الأمثلة التي تدلل على ما سبق ما يلي:

١ – قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ (المؤمنون: ٦٠) ، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ﴾ قراءتان:

الأولى: وهي القراءة المعروفة المتواترة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ بضم الياء في ﴿يُؤتون﴾ وقد قرأ بها جميع القـــراء العشرة المعتبرين ، ومعنى الآية بناء على هذه القراءة : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ يعني: يعطون الشيء فيشفقون ألا يقبل منهم".(٣)

الثانية : "والذين يأتون ما أتوا" بالقصر، وهي قراءة شاذة، قرأ بها كل من عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش.(٤)، ومعنى الآية بناء على هذه القراءة: والذين يأتون ما

(١) ما بين العلامتين من تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٢ ص٥٨٨ بتصرف.

(٢) ما بين العلامتين من قواعد الترجيح لحسين الحربي ص٨٩.

(٣) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني ج٢ ص٩٥.

(٤) مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ص١٠٠، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ج٢ ص٩٥، شواذ القراءات لأبي عبد الله محمد بن أبي نصر الكرماني ص٣٣٦.

أتوا وقلوبهم وجلة" يعني يعملون العمل وهم يخالفونه ويخافون لقاء الله ومقام الله.[١]

والسياق يرجح معنى القراءة الأولى المتواترة، على معنى القراءة الثانية الشاذة وذلك لأن الله – تبارك وتعالى – قال عقيب هذه الآية الكريمة ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ (المؤمنون:٦١) ، فبين سبحانه أن المذكورين في الآية السابقة من السابقين الذين يسارعون في الخيرات، والذي يفعل الآثام ويقدم على المخالفة لا يكون من السابقين وإنما يكون من المقتصدين أو المقصرين.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – : " وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: يا رسول الله: "الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة" هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: "لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل"[٢] وفي رواية الترمذي : " لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات".[٣]

وقد قرأ آخرون هذه الآية والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قرأها كذلك.

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ج٢ ص٩٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج٤٢ ص١٥٦، حديث رقم (٢٥٢٥٦٣).

(٣) تقدم تخريج الحديث بهذه الرواية.

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي خلف مولى بني جمح[١] أنه دخل مع عبيد بن عمير[٢] على عائشة – رضي الله عنها – ، فقالت: مرحبا بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا؟ فقال: أخشى أن أملك، فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسألك عن آية من كتاب الله ــ عز وجل: كيف كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرؤها ؟ قال: أية آية؟ قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ﴾ فقالت : أيتهما أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده لإحداهما أحب إلي من الدنيا جميعا، أو الدنيا وما فيها. قالت وما هي؟ فقلت: والذين يأتون ما أتوا فقالت: أشهد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف".[٣]، وفي سنده إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف[٤].

---

(١) أبو خلف المكي مولى بني جمح عَن عَائِشَة ــ رضى الله تَعَالَى عَنْهَا ــ وَعنهُ إِسْمَاعِيل المكي لَا يعرف، وَقد ذكره أَبُو أَحْمد الْحَاكِم فِي الكنى فِيمَن لم يقف على اسْمه. (تعجيل المنفعة لابن حجر العسقلاني ج٢ ص٤٤٧،٤٤٨).

(٢) عبيد بن عمير: هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، يكنى أبا عاصم، لأبيه صحبة، وله رواية عن عمر، وعلي، وأبي ذرّ، وأبيّ بن كعب، وأبي موسى، وعائشة، وابن عمر، وغيرهم، قال العجليّ في (تاريخ الثقات ص٣٢١): مكي ثقة من كبار التابعين، وقال ابن جريج: مات عبيد بن عمير قبل ابن عمر، وقال ابن حبان في (الثقات ج٥ ص١٣٢) : مات سنة ثمان وستين. (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج٥ ص٤٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج٤١ ص١٨٥، برقم (٢٤٦٤١)، وضعفه الشيخ الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

(٤) إسماعيل بن مسلم المكي من صغار التابعين، أصله من البصرة وسكن مكة، قال عنه البخاري: "تركه ابن المبارك وربما روى عنه وتركه يحيى وابن مهدي" (التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري ج١ ص٣٧٢)، ونقل ابن أبي حاتم عن يحيى القطان قال: "لم يزل مختلطا كان يحدثنا بالحديث الواحد على ثلاثة ضروب"، وقال أبو حاتم ضعيف الحديث مخلط وقال ابن أبي حاتم قلت لأبي هو أحب إليك أو عمرو بن عبيد قال جميعا ضعيفين وإسماعيل هو ضعيف الحديث ليس بمتروك يكتب حديثه. (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ج٢ ص١٩٨،١٩٩).

والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر، لأنه قال: أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم".[١]

٢ – قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ (البقرة:١٢٦).

فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ....الآية ﴾ قراءتان:

الأولى: وهي القراءة المعروفة المتواترة: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وقد قرأ بها جميع القراء العشرة المعتبرين، وبناء على هذه القراءة: "فإن الفاعل في "قال" هو اسم الله تعالى؛ أي: لما قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قال الله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ ".[٢]

الثانية : {قال ومن كفر فأمْتِعْهُ قليلا ثم اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، على الدعاء، وهي قراءة شاذة قرأ بها ابن عباس وقتادة ومجاهد والأعمش[٣] وبناء على هذه القراءة: فالفاعل في "قال" ضمير إبراهيم – عليه السلام – ؛ أي: قال إبراهيم أيضًا : ومن كفر فأَمْتِعه يا رب ثم اضطرَّه يا رب .

وحَسُنَ على هذا إعادة "قال" لأمرين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص٤١٨، ٤١٩ بتصرف.

(٢) ما بين العلامتين من المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني ج١ ص١٤٠.

(٣) المحتسب لابن جني ج١ ص١٤٠، شواذ القراءات لمحمد بن أبي نصر الكرماني ص٧٥.

أحدهما : طول الكلام، فلما تباعد آخره من أوله أُعيدت "قال" لبُعْدِها، كما قد يجوز مع طول الكلام ما لا يجوز مع قصره.

والآخر : أنه انتقل من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين، فكأن ذلك أَخْذٌ في كلام آخر، فاستؤنف معه لفظ القول.(١)

وقد رد الإمام ابن كثير – رحمه الله – هذه القراءة الشاذة لأن سياق الآية الكريمة يأبى معناها، فقال : " وقرأ بعضهم قال ومن كفر فأمتعه قليلا الآية ، جعله من تمام دعاء إبراهيم وهي قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة ، وتركيب السياق يأبى معناها ، والله أعلم ، فإن الضمير في قال : راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور ، والسياق يقتضيه ، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في قال عائدا على إبراهيم ، وهذا خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العلام "(٢) .

٨ – معرفة المكي والمدني

فقد ذكر علماء علوم القرآن أن السبيل إلى معرفة المكي والمدني هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة(٣) .

فلا سبيل إلى معرفة هذا الأمر إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك لأنه لم يرد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بيان للمكي والمدني؛ وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ويشهدون

---

(١) المحتسب لابن جني ج١ ص١٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٠١،٣٠٢.

(٣) دراسات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل ص٤٦، دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي ص١٢٧ بتصرف.

مكانه وزمانه وأسباب نزوله عيانا، وليس بعد العيان بيان [١] .

قال الإمام أبو بكر الباقلاني – رحمه الله : " إنما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذلك قول لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول " [٢] .

يقول عبد الله – رضي الله عنه – : "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه".[٣]

وقد ذكر الزركشي في البرهان [٤] عن الجعبري أن هناك طريقاً آخر لمعرفة المكي والمدني وهو الطريق القياسي الاجتهادي : حيث نظر العلماء – رحمهم الله تعالى – في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول " السماعي النقلي " واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية وخصائص وضوابط للسور المدنية [٥] ، ثم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج١ ص١٩٦.

(٢) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني ج١ ص٢٤٧ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم جـ ٤ ص ١٩١٢ ، برقم (٤٧١٦) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما جـ ٤ ص ١٩١٣ ، برقم (٢٤٦٣) .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١ ص ١٨٩ .

(٥) يقول العلامة الشيخ الدكتور عبد الوهاب عبد المجيد غزلان – رحمه الله – في التفريق بين الضوابط والخصائص: الضوابط هي علامات، إذا وجد شيء منها في سورة علم أن تلك السورة مكية أو مدنية، وكل منهما علامات واضحة يدركها كل أحد؛ لأنها إما أمور لفظية كأن يقال: كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية، وإما أمور معنوية ولكنها واضحة لا يتوقف إدراكها على قوة استقراء أو إطالة نظر كالقصص، والحدود والمواريث فإن من سمع أخبار الأمم الماضية أدرك أنها قصص

نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس.[١] من خلال النظر في سياقات هذه السور والآيات.

وأحيانا قد يصلنا رأيان في مكية ومدنية سورة معينة ، فلابد أن نعتمد السياق حينئذ في الترجيح، ومن الأمثلة على هذا ما يلي :

١ – سورة الصف اختلف فيها هل هي مكية أو مدنية ؟ .

فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – في رواية إنها مدنية [٢] ، وهو قول جمهور العلماء [٣] .

وذكر النحاس في الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في رواية أخرى أنها مكية [٤] .

وقد اختار الإمام الألوسي القول الأول أنها مدنية [٥] كما رجحه الدكتور فضل

= الأولين، ومن سمع العقوبات المحددة لبعض الجنايات كالسرقة وغيرها أدرك أنها حدود مرتبة على تلك الجنايات، ومن سمع تقسيم التركة إلى النصف والربع ونحو ذلك أدرك أنها أحكام في الميراث .

أما الخواص فإنها ترجع إلى ما عني به كل منهما من المقاصد والأغراض وانفرد به عن الآخر، وإلى المزايا التي يمتاز بها أسلوب كل منهما عن الآخر، فهي أمور دقيقة لا يدركها كل أحد بل يتوقف إدراكها على شيء من النضوج العقلي وعلى قدر من المعرفة بعلوم اللغة العربية. البيان في مباحث من علوم القرآن ص ١٣١ .

(١) دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي ص ١٢٧ .

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس ص ٣٣ .

(٣) روح المعاني للألوسي ج١٤ ص٢٧٧.

(٤) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ص٧٤٥.

(٥) روح المعاني للألوسي ج١٤ ص٢٧٧.

عباس [١].

ومن المرجحات لهذا القول سياق السورة الكريمة، فقد ذكر فيها القتال، والقتال لم يشرع إلا في المدينة، والخطاب فيها كان موجها للمؤمنين وهو من ضوابط المدني كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الصف: ١٠).[٢]

٢ – سورة الحج اُختلف في مكيتها ومدنيتها على أقوال ، فذهب بعضهم : إلى أنها مكية إلا آيات مستثناة ، وذهب بعضهم : إلى أنها مدنية إلا آيات مستثناة ، وذهب بعضهم : إلى أنها مدنية، وذهب بعضهم: إلى أنها مختلطة فمنها مكي ومنها مدني.[٣]

وقد استدل من قال بمدنية هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ (الحج:٣٩) [٤] فإن سياق هذه الآية يؤيد القول بمدنيتها؛ لأن فيه تشريع القتال للذين ظلموا، ومعلوم أن القتال إنما شرع بالمدينة، فكل آية فيها تشريع القتال أو ذكره فهي من القرآن المدني .

٩ – إثبات دعوى النسخ أو عدمه .

فإن العلم بالناسخ والمنسوخ عظيم الشأن [٥]، وهو من الأمور المهمة الواجب معرفتها على كل من يتصدى لتفسير القرآن الكريم، إذ يدخل في تحديد المراد من النصوص القرآنية، وهذا ما أكده الأئمة الأعلام حيث قالوا: "لا يجوز لأحد أن يفسِّر

---

(١) إتقان البرهان في علوم القرآن للدكتور فضل حسن عباس ج١ ص٣٧٨.

(٢) السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي للمثنى عبد الفتاح محمود محمود ص١٤٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٢ ص١.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص٣٨٠.

(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ ص٢٨.

كتابَ الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ " [١] .

ويقول الإمام الفيروزآبادي – رحمه الله : "معرفة النَّاسخ والمنسوخ باب عظيم من علوم القرآن، ومن أَراد أَن يخوض في بحر التفسير ففَرْضٌ عليه الشروعُ في طلب معرفته، والاطِّلاع على أَسراره، ليسلَم من الأَغلاط، والخطأ الفاحش، والتأْويلات المكروهة" [٢].

وقد كثُرت أقوال العلماء في بيان أهمية موضوع النَّسخ، وذلك منذ عهد الصحابة – رضي الله عنهم – ؛ فقد رُوي أن عليا – رضي الله عنه – أتى على قاض، فقال له: "هل تعلم الناسخ من المنسوخ "، قال: " لا "، قال : " هلكت، وأهلكت " [٣].

وعن الحَبْر ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة:٢٦٩) قال: "يعني: المعرفة بالقرآن ؛ ناسخه ومنسوخه ، ومحكَمه ومتشابهه ، ومقدَّمه ومؤخَّره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله " [٤] .

ويقول الإمام مكي بن أبي طالب – رحمه الله : " وإن من آكد ما عُني أهل العلم والقرآن بفهمه وحفظه والنظر فيه من علوم القرآن ، وسارعوا إلى البحث عن فهمه وعلمه وأصوله علم ناسخ القرآن ومنسوخه، فهو علم لا يسع كل من تعلق بأدنى علم من علوم الديانة جهله " [٥] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٣ ص ٦٦ ، معترك الأقران في إعجاز القرآن له أيضا جـ ١ ص ٩٩ .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ج١ ص١١٧.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب إثم من أفتى أو قضى بالجهل ج١٠ ص٢٠٠، برقم (٢٠٣٦٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره جـ ٥ ص ٥٧٦ ، برقم (٦١٧٧) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بإسناد حسن. انظر الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور جـ ١ ص ٣٧٨ .

(٥) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ص٤٥،٤٦.

وقد وضع العلماء ضوابط وقواعد للقول بالنسخ في نص من النصوص الشرعية سواء كان هذا النص آية قرآنية أو حديثا نبويا، ومن هذه الضوابط :

أنه لا يصار إلى القول بنسخ هذا النص إلا بعد استفراغ الجهد في النظر في إمكان الجمع بينه وبين ناسخه بأي وجه من وجوه الجمع ، فإذا لم يمكن الجمع بأن كان بين النصين تعارض حقيقي لا يُدفع إلا بالقول بالنسخ فعند ذلك نلجأ إلى القول به ، " دفعا للتناقض في تشريع الحكيم العليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " [١] .

يقول الإمام الطبري – رحمه الله: "الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه، فأما ما كان بخلاف ذلك فغير كائن ناسخا".[٢]

ويقول الإمام أبو جعفر النحاس – رحمه الله: "إذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ".[٣]

وقد ذكر الإمام ابن الجوزي – رحمه الله – شروطا للنسخ منها: "أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضا، بحيث لا يمكن العمل بهما جميعا، فإن كان ممكنا لم يكن أحدهما ناسخا للآخر".[٤]

وهذا التعارض من عدمه لا يمكن إثباته إلا من خلال السياق، فالسياق هو الفيصل في هذا الموضوع.

ومن الأمثلة التي يتبين بها دور السياق في إثبات النسخ أو عدمه ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ

(١) ما بين العلامتين من مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج٢ ص١٧٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج١١ ص٢٥٤.

(٣) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النَّحَّاس ص٦٧٢.

(٤) نواسخ القرآن لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ص٢٠.

عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ (الأنفال:٦٥،٦٦).

فإن الآية الثانية من هاتين الآيتين ناسخة للآية الأولى ، وسياق الآية الثانية يؤكد ذلك حيث قال سبحانه فيها: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾، وذلك بعد أن أمرهم في الآية الأولى بأن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من المشركين، ثم خفف الله – عز وجل – هذا الأمر عنهم وذلك لعلمه بما فيهم من الضعف، وأمرهم بأن يثبت الواحد منهم أمام اثنين من المشركين.

يقول الإمام الطبري – رحمه الله – : "وهذه الآية أعني قوله: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ ، وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر؛ يدلّ على ذلك قوله: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ ، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف، وكان ندبًا، لم يكن للتخفيف وجه، لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوتَ للعشرة من العدو، وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدِّمًا، لم يكن للترخيص وجه ، إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن حكم قوله : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ ، ناسخ لحكم قولـــه: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، وقد بينا في كتابنا "البيان عن أصول الأحكام"، أن كل خبرٍ من الله وعد فيه عباده على عملٍ ثوابًا وجزاء، وعلى تركه عقابًا وعذابًا، وإن لم يكن خارجًا ظاهرُه مخرج الأمر، ففي معنى الأمر بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع".(١)

(١) جامع البيان للطبري ج١٤ ص٥٦،٥٧.

٢ – قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ (الحجر:٣)، فقد أُدعي على هذه الآية أنها منسوخة بآية السيف[١]، وسياق الآية الكريمة يرد هذه الدعوى وينفيها.

فقوله عز وجل: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ ليس بأمر من الله لنبيّه – صلى الله عليه وسلم – بترك المشركين أن يفعلوا ذلك، حتى يأذن له في قِتالهم، وإنما هو تهديدٌ من الله – عز وجل – للمشركين، ووعيدٌ منه لهم، فهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد. والمعنى: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هم آكلوه ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها وتزودهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم فسوف يعلمون غدا إذا وردوا عليه وقد هلكوا على كفرهم بالله وشركهم حين يعاينون عذاب الله أنهم كانوا من تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذات والشهوات كانوا في خسارٍ وتباب.[٢] فلا تعارض بين هذه الآية وآية السيف، وحيث لا يوجد التعارض فلا يحكم على هذه الآية بالنسخ بل هي محكمة.

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله –: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قالوا نسخت بآية السيف والتحقيق أنها وعيد وذلك لا ينافي قتالهم".[٣]

---

(١) اختلف العلماء في تعيين آية السيف، فقيل: إنها الآية الخامسة من سورة التوبة وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ..﴾ (التوبة: ٥)، وقيل هي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩). (علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه للدكتور عدنان محمد زرزور ص٢١١).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١٧ ص٦٥.

(٣) المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤١.

وقال أيضاً: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قد زعم كثير من المفسرين أنها منسوخة بآية السيف والتحقيق أنها وعيد وتهديد وذلك لا ينافي قتالهم فلا وجه للنسخ".(١)

ومن القرائن الدالة على أن المراد بهذه الآية الوعيد والتهديد قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ يعني: "فسوف يعلمون إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا".(٢)

قال الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله – : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ أمر للتوبيخ والتوعد والإنذار بقرينة قوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهو كقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) ﴾ (المرسلات:٤٦)".(٣)

١٠ – بيان المناسبات على اختلاف أنواعها.

من أجل فوائد السياق أن له أثرا مهما في إبراز وبيان المناسبات على اختلاف أنواعها، سواء كانت بين السور، أو الآيات، أو المفردات والجمل التي تتركب منها الآية القرآنية، أو فاتحة الآية وخاتمتها أو غير ذلك من أنواع المناسبات.

قال الإمام السيوطي – رحمه الله – في بيان كيفية التعرف على المناسبات بين الآيات: "قال بعض المتأخرين الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة " .(٤)

وقد لخص الإمام البقاعي – رحمه الله – تجربته في التعرف على المناسبات فقال: "فعلم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى

---

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي ص١٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٠ ص٢.

(٣) التحرير والتنوير ج١٤ ص١٤.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ج٣ ص٣٧٦.

تحقيق مطابقة المقال، لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة، المطلوب ذلك فيها".[١]

ومن الأمثلة التي تدلل على أهمية السياق في بيان وجه المناسبة ما يلي:

١ – المناسبة بين سورة الضحى وسورة الشرح؛ فقد أرشد السياق في السورتين إلى وجه المناسبة بينهما، وذلك أن كلتا السورتين تذكران النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – بنعم الله القديمة والحديثة عليه ، وسورة الضحى فيها ذكر النعم الحسية على النبي – صلى الله عليه وسلم – بينما سورة الانشراح فيها ذكر النعم المعنوية عليه.

يقول الإمام المراغي – رحمه الله : "سورة الشرح مكية ، وهي شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى، إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها".[٢]

٢ – المناسبة بين قوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾ (البقرة:١٦٣)، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ (البقرة:١٦٤).

فقد أرشد السياق إلى وجه المناسبة بين الآيتين وذلك أنه لما كانت الآية الأولى في سياق الحديث عن تفرد الله – عز وجل – بالألوهية، ناسب أن يذكر في الآية التي تليها الأدلة على تفرده بالألوهية بتفرده بخلق السماوات والأرض وما فيها.

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ج١ ص١٤٢.

(٢) تفسير المراغي ج٣٠ ص١٨٨.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله: "يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم ... ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ .(١)

٣ – قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ (المائدة:٣٨) ؛ فإن سياق هذه الآية الكريمة قد بين لنا وجه الحكمة في ختمها الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

فقد نقل الإمام الرازي – رحمه الله عن الأصمعي قال: " كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية فقلت ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سهوا ، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال أعد، فأعدت: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ثم تنبهت فقلت ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال : الآن أصبت ، فقلت كيف عرفت ؟ قال : يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع".(٢)

٤ – التناسب بين سورة يوسف واسمها؛ فإن سبب تسمية هذه السورة بهذا الاسم أن سياق هذه السورة ومحورها الرئيس الذي تعرضت له هو قصة يوسف – عليه السلام – "فلم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف– عليه السلام– هذه السورة من الإطناب".(٣)

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٤٤.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ج١١ ص٣٥٧.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص١٩٧.

١١ــ تحديد مواضع الوقف والابتداء الصحيحة.

السياق له أهمية كبيرة في معرفة المواضع الصحيحة للوقف والابتداء، وبيان ذلك: أن سياق الآية أو الجملة القرآنية يفيد معنى من المعاني التي تكون مرادة من قبل الله تعالى، ولا يجوز للقارئ أن يقف إلا على تمام المعنى الذي أفاده هذا السياق، وإلا وقع في اللبس والخطأ فيُظهر معان غير مرادة في الآية، بل ربما تكون مناقضةً لمعناها.

وتتضح خطورة هذا الأمر أكثر بطرح بعض الأمثلة وهي:

١ – قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ (المائدة:٧٢،٧٣).

فالمعنى المفهوم من سياق هاتين الآيتين هو كفر من قال بأن الله هو المسيح ابن مريم، وكذلك كفر من قال إن الله ثالث ثلاثة، لكن لو وقف القارئ مثلاً على قولــه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ ﴾ ثم ابتدأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ﴾ أو ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ لأبرز معنىً يناقض معنى الآية الكريمة مناقضة تامة، بل من تعمده وقصد معناه فقد كفر.(١)

٢ – قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران:١٨١).

فالمعنى المفهوم من سياق هذه الآية الكريمة أن الله – عز وجل – قد سمع مقالة

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج١ ص٣٥٣.

اليهود الشنيعة في نسبتهم الفقر إلى الله – تعالى – والغنى إلى أنفسهم، وأنه – سبحانه – سيجزيهم على ذلك أشد الجزاء.

لكن لو وقف القارئ مثلا على قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ ﴾ ثم ابتدأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ يكون قد أتى بمعنى يناقض المعنى المقصود من سياق الآية مناقضة تامة.

ومن هنا يبرز دور السياق في الوقوف على معاني الآيات، ومن ثَمَّ تحديد المواضع الصحيحة للوقف والابتداء.

١٢ – تحديد معنى المشترك اللفظي

يعين السياق على تحديد معنى المشترك اللفظي وهو : " اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر " [١] ، سواء كان المعنيان المشتركان في اللفظ متضادين ، أو كانا غير متضادين.

فمثال المتضادين:

١ – لفظ عسعس من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾ (التكوير: ١٧،١٨) ؛ فإنه يستعمل في الإقبال ويستعمل كذلك في الإدبار، ولهذا اختلف المفسرون في تحديد معناه في الآية الكريمة على قولين :

أحدهما : أن عسعس في الآية الكريمة بمعنى أدبر، وقد روي هذا القول عن جماعة السلف[٢]، ونقل الفراء إجماع المفسرين عليه.[٣]

الثاني: أن عسعس في الآية بمعنى أقبل، وقد روي هذا القول كذلك عن بعض السلف.[٤]

---

(١) تاج العروس للزبيدي ج١ ص٢٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج٢٤ ص٢٥٥،٢٥٦.

(٣) معاني القرآن للفراء ج٣ ص٢٤٢.

(٤) جامع البيان للطبري ج٢٤ ص٢٥٦،٢٥٧.

وقد رجح الإمام الطبري – رحمه الله – القول الأول معتمدا في ذلك على السياق فقال – رحمه الله – : "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال : معنى ذلك : إذا أدبر، وذلك لقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ فدلّ بذلك على أن القسم بالليل مدبرًا، وبالنهار مقبلا".[١]

وقد خالف الحافظ ابن كثير – رحمه الله – الإمام الطبري فاختار القول الثاني من هذين القولين، وذلك لاختلافه معه في تحديد السياق، فقال – رحمه الله: " وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: إذا عسعس إذا أدبر قال لقوله والصبح إذا تنفس أي أضاء، وعندي أن المراد بقوله إذا عسعس إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضا لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (الليل: ١– ٢)، وقال تعالى: ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) ﴾ (الضحى:١،٢)، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ (الأنعام:٩٦)، وغير ذلك من الآيات، وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم".[٢]

٢ – لفظ الظن: فهو يأتي أحيانا بمعنى الشك، ويأتي أحيانا بمعنى اليقين، ويتحدد معناه والمراد منه من خلال السياق.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف:٥٣)، المراد منه اليقين، فمعنى ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي: "فعلموا وأيقنوا أنهم داخلوها"[٣]، والحامل لدلالته على اليقين دون الشك هو سياق

---

(١) المرجع السابق ج٢٤ ص٢٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٨ ص٣٣٦ بتصرف.

(٣) النكت والعيون للماوردي ج٧ ص١٨٤.

الآية، فقد سبق هذه اللفظة في نفس الآية قوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ والمعنى: "إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك [١] فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها".[٢]

ومثال غير المتضادين:

١ – لفظ أمة: فإنه مشترك بين معان كثيرة منها: الإمام، والجماعة، والسنين.[٣]

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل:١٢٠)، لا يسوغ القول إن كلمة أمة بمعنى الجماعة، أو بمعنى السنين؛ إذ السياق يُعين معنى الإمام.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله : "الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد بها الدين كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ (الزخرف: ٢٢)، وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠)، وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (القصص: ٢٣) وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ (النحل:٣٦)، وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (يوسف: ٤٥) أي بعد حين على أصح القولين .....، ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين ج٤ ص٢١٨٤، برقم (٢٨٤٢) عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥ ص١٥٤.

(٣) الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق لمحمد نور الدين المنجد ص١٠٣،١٠٤، المشترك اللفظي في الحقل القرآني للدكتور عبد العال سالم مكرم ص١٠٠ــ ١٠٢.

إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام".[١]

٢ – لفظ النجم في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (الرحمن:٦).

فإنَّ النجم قد يُراد به نجم السماء، وقد يراد به النبات الصغير قسيم الشجر وهو ما لم يقم من النبات على ساق .[٢] ، وقد ورد كلا التفسيرين عن السلف [٣] ، والسياق محتمل لكليهما.

فمن فسره بنجم السماء نظر إلى ما تقدمه مباشرة وهو قول الله تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ (الرحمن:٥).

ومن فسره بالنبت الذي لا ساق له نظر إلى اقترانه بلفظ الشجر ومجيئه بعده، فالشجر ما له ساق، والنجم ما ليس له ساق.[٤]

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله – هذا القول[٥]، واختار الحافظ بن كثير ــ رحمه الله القول الأول.[٦]

١٣ــ توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

متشابه القرآن عرفه الإمام الزركشي بأنه هو: "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة".[٧]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٦٨،٦٩.

(٢) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري ص٤٨٢،٤٨٣، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص٥٨٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان للطبري ج٢٢ ص١١،١٢.

(٤) اختلاف السلف في التفسير بين التنظير والتطبيق لمحمد صالح محمد سليمان ص١٨٩.

(٥) جامع البيان للطبري ج٢٢ ص١٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٧ ص٤٥٢ بتصرف.

(٧) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج١ ص١١٢.

وعرفه أبو البقاء الكفوي – رحمه الله – بنفس التعريف السابق مع زيادة عليه فقال هو: "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة في التقديم والتأخير والزيادة والترك والتعريف والتنكير والجمع والإفراد والإدغام والفك وتبديل حرف بحرف آخر".(١)

وعرفه ابن الزبير الغرناطي – رحمه الله – بقوله: "ما تكرر من آياته لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير".(٢)

وبعد إيراد هذه التعريفات يمكن أن نقول بأن المتشابه اللفظي في آيات القرآن الكريم هو: "أن تجيء الآيات القرآنية متكررة في القصة الواحدة من قصص القرآن، أو موضوعاته، في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديما وتأخيرا، وزيادة ونقصا، وذكرا وحذفا، وتعريفا وتنكيرا، وإفرادا وجمعا، وإيجازا وإطنابا، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك، مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يُراد تقريره".(٣)

ويعد وقوع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم أحد أعظم الدلائل والبراهين على إعجازه البلاغي والبياني، وقد ذكر ذلك الإمام الزركشي – رحمه الله – عند حديثه عن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن فقال: "وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكررا".(٤)

وقد عده الإمام السيوطي – رحمه الله – في كتابه (معترك الأقران في إعجاز

---

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ص٨٤٥.

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ج١ ص٨.

(٣) مقدمة درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ج١ ص٥٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج١ ص١١٢.

القرآن) أحد وجوه إعجاز القرآن فقال: "الوجه السادس من وجوه إعجازه (مُشْتَبِهات آياته)".[١]

يقول الإمام ابن فارس – رحمه الله: "فأما تكرير الأنباء والقِصَص في كتاب الله جل ثناؤه فقد قيلت فيه وجوه، وأصح ما يقال فيه أن الله – جل ثناؤه – جعل هذا القرآن وعجْزَ القوم عن الإتيان بمثله أيةً لصحة نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ، ثم بيَّن وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القِصَّة في مَواضِعَ إعلاماً أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء وبأي عبارة عَبَّرَ. فهذا أولى ما قيل في هذا الباب".[٢]

وقد اهتم العلماء قديما وحديثا بتوجيه المتشابه [٣] ، وذلك ببيان علل تكرار الآيات المتشابهات وأسرار وعلل الاختلاف بينها، وكان من أبرز الطرق والمسالك التي اعتمد عليها العلماء في توجيه المتشابه السياق القرآني، سواء كان سياق الآية، أو المقطع أو السورة.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) للسيوطي ج١ ص٦٦.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس ص١٥٨.

(٣) من الكتب القديمة والحديثة في توجيه المتشابه ما يلي :

١ – درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي .

٢ – أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لمحمود بن حمزة الكرماني .

٣ – ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي .

٤ – فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري .

٥ – متشابه النظم في قصص القرآن الكريم – مقارنة وتحليل – للدكتور عبد الغني الراجحي .

٦ – المتشابه في القرآن الكريم وأسراره البلاغية للدكتور صالح الشتري .

٧ – صفوة البيان في متشابه النظم في القرآن .

ومن الأمثلة التي تدلل لنا على أهمية السياق في توجيه المتشابه اللفظي ما يلي:

١ – التشابه بين قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١)، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ (الإسراء:٣١) لكنه – سبحانه – قال في الآية الأولى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بضمير المخاطب، وفي الثانية قال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ بضمير الغائب، وقد علل العلماء الاختلاف بين الآيتين بالنظر إلى سياق كل منهما.

فسياق سورة الأنعام كان سبب قتل الأولاد فيه هو: الفقر الحاصل للآباء قبل ولادة الأبناء، فنَهى الله عن قتلهم، ووعد برزقهم أي: الآباء، ومن ثم رزق الأبناء، فقدَّم رزق الآباء؛ لأن هذا أي – فقرهم – هو الباعث على قتل الأولاد بينما في سورة الإسراء كان السياق يدلُّ على أن سبب قتل الأبناء هو: خوف الآباء من الفقر في الآجل بسببهم، فنهاهم الله عن ذلك، ووعدهم برزق الأبناء أولاً ليزول هذا الخوف الباعث على قتلهم.

يقول ابن الزبير الغرناطي – رحمه الله : " قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ، وفى سورة بنى إسرائيل [الإسراء]: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ ، ففي الأولى ﴿ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ و﴿ نَرْزُقُكُمْ ﴾ بتقديم ضمير المخاطبين فللسائل أن يسأل عن وجه هذا الاختلاف في الآيتين مع اتحاد المقصد فيهما ؟.

والجواب عن ذلك والله أعلم أن المخاطبين بآية الأنعام إنما كان فعلهم ذلك من أجل الفقر الحاصل حال قتلهم، فقيل ﴿ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ أي من أجل الإملاق الحاصل، ثم قيل لهم ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فقدم رزقه – تعالى – لهم لحصول فقرهم في الحال ليكون أمنع لهم وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد في رفع فقر الآباء القاتلين فكأنَّ قد قيل لهم: إنما ترزقون بهم فلا تقتلوهم، فتأكد تقديم ضمير الآباء لهذا الغرض.

وأما في الآية الأخرى فقصد بها كفار العرب وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلاً، فقيل ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ، فجعلت الخشية هي العلة في فعلهم، فانتصبت على ذلك، والمعلول الذي هو الإملاق لم يقع بعد، وضمن – تعالى – لهم رزقهم ورزق أولادهم، ودفع ذلك المتوقع ليرفع خشيتهم، فلهذا قدم هنا ضمير الأولاد ثم عطف عليه ضمير الآباء، وكان الأهم هنا فقدم، وجاء كل في الموضعين على ما يجب ويناسب، والله أعلم".(١)

٢ – التشابه بين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال:٧٢)، ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (التوبة:٢٠)، لكن في الآية الأولى قدم ذكر الأموال والأولاد على ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وفي الثانية قدم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على الأموال والأولاد، وقد علل الإمام الكرماني – رحمه الله – سبب ذلك بالنظر إلى السياق فقال: " قَوْله ﴿ الَّذين آمنُوا وَهَاجرُوا وَجَاهدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأنفسهم فِي سَبِيل الله ﴾ فِي هَذِه السُّورَة (يعني سورة الأنفال) بتَقْدِيم ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ وَفِي بَرَاءَة بتَقْدِيم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لِأَن فِي هَذِه السُّورَة تقدم ذكر الْمَال وَالْفِدَاء وَالْغنيمَة فِي قَوْله ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ (الأنفال:٦٧)، ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ (الأنفال:٦٨) أَي من الْفِدَاء، ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ (الأنفال:٦٩) فَقدم ذكر الْمَال، وَفِي بَرَاءَة تقدم ذكر الْجِهَاد وَهُوَ قَوْله ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ (التوبة:١٦)، وَقَوله ﴿ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة:٢٠) فَقدم ذكر الْجِهَاد".(٢)

١٤ــ تحديد مرجع الضمير

فالسياق له دور مهم في تحديد مرجع الضمير؛ وذلك أنه كثيرا ما يقع ضمير ما في

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ج١ ص١٧٢،١٧٣.

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني ص١٣٢،١٣٣.

سياق قرآني معين ، وتتعدد الاحتمالات في مرجع هذا الضمير ، والذي يحدد مرجعه ويرجحه هو السياق .

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٦٩)

فقد اختلف العلماء حول مرجع الضمير في قوله سبحانه: ﴿ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ﴾ إلى قولين :

الأول : أنه العسل، وقد رُوي هذا القول عن ابن عباس – ضي الله عنهما [١]، وقتادة [٢] .

الثاني : أنه القرآن، وقد روي هذا القول عن مجاهد [٣] .

والسياق يرجح القول الأول، فإن سياق الآية من أوله إلى آخره في الحديث عن النحل وما يخرج من بطونها وهو العسل وليس للقرآن ذكر، وبالتالي يكون رجوع الضمير إلى العسل أولى.

قال الإمام الطبري – رحمه الله – بعد ذكره للقولين السابقين في تفسير الآية:" وهذا القول، أعني قول قتادة، أولى بتأويل الآية؛ لأن قوله: ﴿فِيهِ﴾ في سياق الخبر عن العسل فأن تكون الهاء من ذكر العسل، إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره".[٤]

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ج١٧ ص٢٥٠ عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ من طريق عطية العوفي وهو إسناد مسلسل بالضعفاء، كما ذكر ذلك الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على هذا الأسناد في تفسير الطبري ج١ص٢٦٣.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ج١٧ ص٢٥٠ عن قتادة، بإسناد حسن. انظر الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور لحكمت بن بشير ياسين ج٣ ص١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ج١٧ ص٢٤٩، ٢٥٠ عن مجاهد.

(٤) المرجع السابق ج١٧ ص٢٥٠.

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله: " وقال مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ها هنا من سياق الآية فإن الآية إنما ذكر فيها العسل".[١]

٢ – قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ (الشعراء:١٩٦).

فقد اختلف العلماء حول مرجع هاء الكناية في الآية الكريمة إلى قولـــــين:

أحدهما : أن هاء الكناية تعود إلى القرآن، والمعنى: وإن هذا القرآن لفي بعض زبر الأوّلين يعني : أن ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على بعض رسله [٢] .

الثاني : أنها تعود إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمعنى أن ذِكْرُ محمد – صلى الله عليه وسلم – ونعته، موجود في زبر الأولين وهو قول مقاتل.[٣]

وهذا القولان وإن كانا صحيحين في أصلهما، إلا أن السياق يرجح الأول منهما وذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ (الشعراء:١٩٢) إلى الآية الكريمة، والآيات بعدها إلى قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (الشعراء:٢٠١)، في سياق الخبر والحديث عن القرآن فأن تكون الهاء راجعة إلى القرآن إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره.

١٥ــ معرفة سبب التقديم، فأحد أسباب التقديم ما دل عليه السياق.

إن التقديم والتأخير ظاهرة لغوية تنقسم إلى قسمين:

الأول : تقديم اللفظ على عامله كتقديم الخبر على المبتدأ، ومثاله في القرآن قوله تعالى: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ (فاطر:١٣، التغابن:١)، أو تقديم المفعول به على الفعل والفاعل،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص٤٩٩.

(٢) جامع البيان للطبري ج١٩ ص٣٩٧.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ج٣ ص٢٨٠.

وذلك كتقديم إياك على الفعلين نعبد، ونستعين في قوله تعـــالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)، وهذا التقديم له أسباب عدة أهمها الحصر والاختصاص فالملك خاص بالله – عزَّ وجل – ، وكذلك العبادة لا تكون إلا لله – عزَّ وجل – ، والاستعانة لا تكون إلا به.

والقسم الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض لغير العامل، وهذا القسم من التقديم والتأخير له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام، فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والقرآن الكريم أعلى مثل في ذلك، فإنا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام، فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر كل ذلك بحسب ما يقتضيه القول وسياق التعبير [١] .

وقد ذكر الإمام الزركشي – رحمه الله – دلالة السياق كسبب من أسباب التقديم والتأخير فقال في المقتضى التاسع من مقتضيات تقديم ما قُدم والمعنى عليه : " التاسع : سبق ما يقتضي تقديمه ، وهو دلالة السياق" [٢] .

ثم ذكر – رحمه الله – بعض الأمثلة على هذا منه ا:

١ – قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ (النحل: ١٩٨) حيث قدم سبحانه في الآية الكريمة الرواح وهو الرجوع من المرعى في العشي، على السراح وهو الخروج للرعي في الغداة ، وذلك لأنه تقدم ذكر جمال الأنعام في الآية الكريمة ، وجمالها في الرواح يكون أعظم وأكثر لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً.

---

(١) التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي ص٤٩ – ٥٢ بتصرف.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٣ ص٢٦٢.

يقول الإمام الزركشي : "لما كان إسراحها وهي خماص وإراحتها وهي بطان قدم الإراحة لأن الجمال بها حينئذ أفخر".[١]

٢ – قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمً ﴾ (الأنبياء:٧٩)، فإنه سبحانه قدم الحكم على العلم في الآية الكريمة مع أن العلم لابد من سبقه للحكم، ولكن لما كان السياق في الحكم قدمه، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ (الأنبياء:٧٨).[٢]

٣ – تقديم مريم – عليها السلام – في قوله ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ (الأنبياء:٩١) على ولدها؛ لأن أول الآية في الحديث عنها في قوله: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، وأما في غير هذه الآية فقد قدم الابن عليها في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ (المؤمنون: ٥٠).[٣]

١٦ــ يعين السياق على بيان المحذوف، ويرشد إلى معرفة ما قدر في النص.

من المعلوم أن الحذف ظاهرة لغوية عامة ومشتركة بين جميع اللغات، حيث يميل الناطقون بها إلى حذْف بعض العناصر بُغية الاختصار، أو حذف ما قد يُمكن للسامع فَهْمه اعتمادًا على القرائن المصاحبة، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وهي تعد الإيجاز من حسن الصياغة في الكلام، كما أن القرآن الكريم له نمطه الخاص في التركيب، إذ يجد المتمرس في أساليب العربية وطرائقها في التعبير أن نمط الجملة العربية في القرآن فريد متميز، فقد يذكر الحرف في كلمة في موطن ما، ويحذف هذا الحرف من نفس الكلمة في موطن آخر، وتذكر الكلمة في موطن ما، وتحذفها في موطن آخر مع اقتضاء ذكرها، وذكرها وحذفها ليس عشوائياً، وإنما لحكمة قد نعلمها وقد لا نعلمها،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق بتصرف.

وقد نعلم جزءاً منها.

ولكن ينبغي أن يُعلم أن الحذف إذا نُسب في القرآن فإننا لا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن، بل ننسبه إلى تركيب اللغة، فاللغة تجعل للجملة العربية أنماطاً تركيبية معينة فإذا لم تشتمل على بعض هذه التراكيب عددنا ذلك حذفاً، ولا شك في أن معرفة المحذوف مهم لاستنباط الحكم من الآية، وهي بدوره تتوقف على قرائن أهمها سياق الآية.(١)

قال الإمام العز بن عبد السلام – رحمه الله: "المحذوفات الَّتِي يجوز حذفهَا والنطق بهَا بِمَثَابَة الْمَنْطُوق بِهِ لفظا وَمعنى فَلَا يحذفون إِلَّا مَا لَو نطقوا بِهِ لَكَانَ أحسن وأفصح وأكمل فِي ملائمة لفظ ذَلِك السِّيَاق وَمَعْنَاهُ وَلَا يحذفون مَا لَا دَلِيل عَلَيْهِ وَإِذا دَار الْمَحْذُوف بَين أَمريْن قدر أحسنهما لفظا ومعنى والسياق مرشد إِلَيْهِ فَيقدر فِي كل مَوضِع أحسن مَا يَلِيق بِهِ".(٢)

وقال الإمام الزركشي – رحمه الله – وهو يتكلم عن النوع السادس والأربعين من أنواع علوم القرآن وهو (أساليب القرآن وفنونه البليغة) وذكر منها الحذف، وذكر له أمثلة ثم قال: "واعلم أن دلالة السياق قاطعة بهذه المحذوفات".(٣)

وقال الإمام الطاهر بن عاشور – رحمه الله: "إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق".(٤) .

---

(١) إرشادات السياق في فهم الخطاب القرآني للدكتور بختيار نجم الدين شمس الدين ص٢٦.

(٢) الإمام في بيان أدلة الأحكام لعز الدين بن عبد السلام ص٢٠٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٣ ص١٢٩.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١ ص١٢٢.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة:٧).

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: "غير المغضوب عليهم ، أي غير صراط المغضوب عليهم. واكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل سياق الكلام وهو قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ ﴾ ".(١)

٢ – قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ (آل عمران:١٧٢ ــ ١٧٤).

قال الإمام الألوسي – رحمه الله: "﴿ فَانقَلَبُواْ ﴾ عطف على مقدر دل عليه السياق أي فخرجوا إليهم ورجعوا بِنِعْمَةٍ".(٢)

١٧ – تحديد أسلوب الكلام .

يعين السياق على تحديد أسلوب الكلام؛ ففي كثير من الأحيان يخالف ظاهر الكلام المقصود به، فتأتي صيغة الكلام في صورة الماضي والمقصود به المضارع، أو العكس، أو يكون الكلام في صورة الخبر، والمقصود به الإنشاء والطلب، أو العكس، والسياق له دور بارز في تجلية هذا الأمر والكشف عنه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٥٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ج٢ ص٣٤٠.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ ﴾ (البقرة:٢٢٨)، وقوله: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ﴾ (البقرة:٢٣٣)، فالأسلوب في الآيتين الكريمتين أسلوب خبر، لكن المراد من ذلك الأمر، والمرشد هو السياق، فالصيغة كانت مقصودة للدلالة على الأمر.

قال الإمام الزركشي – رحمه الله – عن هاتين الآيتين: "السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك، لا أنه خبر وإلا لزم الخُلف في الخبر".(١)

٢ – قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ (الأنفال : ٦٥ ، ٦٦) .

فالأسلوب في هاتين الآيتين الكريمتين أسلوب خبر لكن المراد به الأمر والذي يدل على ذلك السياق من عدة وجوه:

أحدها : أنه لو كان خبرا محضا للزم وقوع خلاف المخبر به، وهو محال؛ فدل على أنه أمر.

الثاني : قرينة التخفيف في قوله تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ ؛ فإنه لا يقع إلا بعد تكليف، والمراد بالتخفيف هنا التكليف بالأخف لا رفع الحكم أصلاً.(٢)

الثالث : قوله تعالى في ختام الآية: ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال:٦٦) وذلك ترغيب منه في الثبات على الجهاد، فثبت أن المراد من هذا الكلام هو الأمر، وإن كان

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ ص٣٢٠.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٣١١.

وارداً بلفظ الخبر .

قال الإمام الرازي –رحمه الله : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ وليس المراد منه الخبر بل المراد الأمر كأنه قال: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ ﴾ فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى ﴿ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ والذي يدل على أنه ليس المراد من هذا الكلام الخبر وجوه: الأول : لو كان المراد منه الخبر، لزم أن يقال: إنه لم يغلب قط مائتان من الكفار عشرين من المؤمنين، ومعلوم أنه باطل . الثاني : أنه قال: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ (الأنفال:٦٦) والنسخ أليق بالأمر منه بالخبر. الثالث: قوله من بعد: ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، وذلك ترغيباً في الثبات على الجهاد، فثبت أن المراد من هذا الكلام هو الأمر وإن كان وارداً بلفظ الخبر، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ (البقرة:٢٣٣) ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ .[١]

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني – رحمه الله ــ في شرحه لصحيح البخاري عند كلامه على هذه الآية : "والسياق وإن كان بلفظ الخبر لكن المراد منه الأمر لأمرين أحدهما: أنه لو كان خبرا محضا للزم وقوع خلاف المخبر به ، وهو محال؛ فدل على أنه أمر، والثاني: لقرينة التخفيف؛ فإنه لا يقع إلا بعد تكليف، والمراد بالتخفيف هنا التكليف بالأخف لا رفع الحكم أصلاً " .[٢]

١٨– تحديد المعنى المراد من حروف المعاني

لا تكادُ تخلو جملةٌ عربيةٌ، ولا تركيبٌ قرآني، من حرف معنى؛ فهو مكوِّن أساسي من مكوِّنات الجملة العربية، مثله مثل الاسم والفعل.

وهذه الحروف تقوم بِرَبْطِ أجزاء الجملة بعضها ببعض ، كما أنها تدل على معان

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ج١٥ ص٥٠٤.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٣١١.

كثيرة ، ويتحدد كل معنى هذه المعاني من خلال السياق الذي وردت فيه ؛ " فلا بيئة لحروف المعاني خارج السياق، فهي ذات افتقار متأصل إليه".(١)

يقول أبو محمد الحسن المرادي – رحمه الله : " دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلقه ، بخلاف الاسم والفعل، فإن دلالة كل منهما، على معناه الإفرادي، غير متوقفة على ذكر متعلق؛ ألا ترى أنك إذا قلت الغلام فهم منه التعريف، ولو قلت أل مفردة لم يفهم منه معنى. فإذا قرن بالاسم أفاد التعريف، وكذلك باء الجر فإنها لا تدل على الإلصاق، حتى تضاف إلى الاسم الذي بعدها، لأنه يتحصل منها مفردة، وكذلك القول في سائر الحروف".(٢)

وقال الإمام الزركشي – رحمه الله – مبيناً دور السياق في تحديد معاني الحروف، بعد أن ذكر أن معنى كيف للاستفهام عن حال الشيء لا عن ذاته: "هذا أصلها في الوضع لكن قد تعرض لها معان تفهم من سياق الكلام أو من قرينة الحال مثل معنى التنبيه والاعتبار وغيرهما".(٣)

ومن أمثلة تغاير معنى الحرف بتغير السياق:

"متى تدرس تنجح"، "متى تدرس لكي تنجح؟".

فبالرغم من التغاير البسيط جداً في السياق، وذلك بزيادة "لكي" في الجملة الثانية إلا أن المعنى تغير تماما في "متى"، ف"متى" الأولى شرطية، ولما تغير السياق في الجملة الثانية أصبحت استفهامية "حرف استفهام".

فمعاني الحروف مرتبطة بالسياق كارتباط الرأس بالجسد، والقرآن الكريم مليء

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان عمر ص١٢٧ بتصرف.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي ص٢٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص٣٣٠.

بحروف المعاني، ولذلك اهتم المفسرون بهذا العلم، وفصَّلوا في المعاني المختلفة لكل حرف منها بحسب استعماله السياقي، حتى عُدَّ هذا العلم من فروع التفسير.

ولأهميته في باب التفسير فقد ذكر الإمام الزركشي والسيوطي ــ رحمهما الله ــ احتياج المفسر له.(١)

يقول الإمام الزركشي – رحمه الله: "الكلام على المفردات من الأدوات، والبحث عن معاني الحروف مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها، ولهذا توزع الكلام على حسب مواقعها وترجح استعمالها في بعض المحال على بعض بحسب مقتضى الحال".(٢)

ويقول الإمام السيوطي – رحمه الله: "معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها".(٣)

ومن الأمثلة التي تبين دور السياق في الكشف عن معاني الحروف ما يلي:

١ – الباء: لها ثلاثة عشر معنى (٤) لكن معناها في قوله تعالى: ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ (البقرة:٥٤) السببية ويعبر عنه أيضا بالتعليل، والذي كشف لنا عن هذا المعنى هو سياق الآية الكريمة، فقد بين الله – تبارك وتعالى – أن اليهود قد ظلموا أنفسهم، ثم بين سبب هذا الظلم وهو اتخاذهم العجل معبودا من دون الله عز وجل، كما أنه يصلح أن يحل محلها اللام.

يقول الإمام السيوطي – رحمه الله: "الباء المفردة حرف جر له معان منها: السببية

(١) السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ص٢٢٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص١٧٥ بتصرف.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ ص١٦٦بتصرف.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي ص٣٩.

وهي التي تدخل على سبب الفعل، نحو: ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ ، ويعبر عنها أيضا بالتعليل".[١]

وقال الحسن المرادي – رحمه الله : " الباء حرف مختص بالاسم، ملازم لعمل الجر، وهي ضربان زائدة، وغير زائدة. فأما غير الزائدة فقد ذكر النحويون لها ثلاثة عشر معنى منها: التعليل: قال ابن مالك: هي التي تصلح غالباً في موضعها اللام . كقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ ".[٢]

٢ – الباء في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ (الأنعام:٣٨) للاستعانة، والذي بين ذلك هو السياق، وذلك أن الطائر لا يمكنه الطيران من غير استعانة بجناحيه، فهما آلة طيرانه، وقد ذكر العلماء في ضابط باء الاستعانة بأنها "الداخلة على آلة الفعل".[٣]

٣ – "ما" تكون على اثني عشر وجها [٤] لكنها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ (البقرة:١٣) مصدرية، والسياق هو الذي دلنا على ذلك، لأنها تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، وتقدير الآية بناء على هذا: " وإذا قيل لهم آمنوا إيمانا كإيمان الناس " .

١٩ – الترجيح بين أقوال الفقهاء في مسائل الأحكام

كثيرا ما يختلف الفقهاء في بيان حكم تكليفي[٥] معين ورد في آية قرآنية معينة،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ ص٢١٦.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي ص٣٩.

(٣) المرجع السابق ص٣٨.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص٣٩٨.

(٥) الحكم التكليفي: خطاب الله القديم المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير. الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي لعلي بن عبد الكافي السبكي ج١ ص٤٣.

فيقول بعضهم مثلا بالوجوب، ويقول بعضهم بالندب أو الإباحة، ثم يأتي السياق فيرجح بين هذه الأقوال، أو يختلفون في مسألة فقهية معينة على أقوال متعددة، ويأتي سياق آية أو آيات استدل بها أحد الفريقين، ليكون مرجحا لهذا القول على ما عداه من الأقوال.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور:٣٣).

فقد اختلف الفقهاء في نوع الأمر في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ هل هو على سبيل الوجوب أو الندب، فالأول هو مذهب فقهاء الظاهرية [١]: قالوا يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك .[٢]

والثاني مذهب الجمهور [٣] ؛ قالوا: مكاتبة السيد عبده مندوبة إذا طلبها العبد وعلم السيد فيه خيرا".

والسياق يرجح هذا القول وذلك أن الله – عز وجل – قيَّد المكاتبة بشرط علم الخير فيه فقال: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فعلّق الأمر بالمكاتبة على أمر باطن، وهو علم السيد بالخيرية، فإذا قال العبد: كاتبْني، وقال له السيد: لم أعلم فيك خيراً كان القول للسيد فدلّ على عدم وجوبه.

قال الإمام أبو بكر بن العربي – رحمه الله: "إنما يكون مطلق الأمر يقتضي الوجوب إذا تعرى عن قرينة، وهاهنا قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب ، وهو تعليقه

---

(١) المحلى بالآثار لابن حزم الظاهري ج٨ ص٢١٩، تفسير آيات الأحكام لمحمد علي السايس ص٥٩٩.

(٢) روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن للشيخ محمد علي الصابوني ج٢ص١٩٢.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ج٢٣ ص٣٧٤.

بشرط علم الخير فيه، فتعلق الوجوب على أمر باطن، وهو علم السيد بالخير فيه، وإذا قال العبد، كاتبني، فقال السيد: لم أعلم فيك خيرا، وهو أمر باطن؛ فيرجع فيه إليه، ويعول عليه، وهو قوي في بابه".[١]

٢ – اختلف الفقهاء في حكم الترتيب بين الأعضاء في الوضوء بين قائل بالوجوب وقائل بعدمه، وقد رجح الإمام الشافعي – رحمه الله – القول بالوجوب ، استدلالا بالسياق في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ﴾ (المائدة:٦)، وذلك أنه سبحانه ذكر الممسوح بين المغسولات وهذا ليس له معنى سوى إفادة الترتيب.

قال الإمام الكياالهراسي – رحمه الله : " فظاهر الآية يقتضي وجوب إمرار الماء على الأعضاء الأربعة ، ولو قال صاحب الشريعة: أمروا الماء على الأعضاء الأربعة: الوجه، واليدين، والرأس، والرجلين، فإذا أمر الماء عليها على أي وجه كان، خرج عن مقتضى الأمر وكان ممتثلا، وليس يجب على المأمور إلا ما اقتضاه ظاهر الأمر.

إلا أن الشافعي يوجب الترتيب تلقيا من إدراج الممسوح في تضاعيف المغسولات، وأن ذلك لا يكون إلا عن قصد ترتيب الأشياء على النسق المذكور".[٢]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج٣ ص٣٩٧،٣٩٨.

(٢) أحكام القرآن للكياالهراسي ج٣ ص٤٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، أحمده وأشكره على توفيقه في البدء والختام، وأصلي وأسلم على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرام، وبعد.

ففي نهاية هذا البحث من المناسب أن أذكر جملة من النتائج والتوصيات التي توصلت إليها، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: النتائج :

١ – علم السياق علم عظيم القدر رفيع المنزلة، وهو من أعظم الأصول التي توصل إلى الفهم الصحيح لكتاب الله تبارك وتعالى، فمن رام فهماً صحيحاً لهذا الكتاب الكريم فعليه بالنظر للسياق بمجموع قرائنه ودلالاته.

٢ – دلالة السِّياق تعتبر من تفسير القُرْآن بالقُرْآن، وهو بذلك مِن أشرف أصولِ التفسير.

٣ – يعتبر السياق من أعظم وجوه الإعجاز القرآني ودلائله التي تظهر القرآن كأنه كلمة واحدة ترتيبًا وتماسُكًا.

٤ – دلالة السياق معتبرة شرعا، فقد استخدمها النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته من بعده، وتتابع العلماء على استخدامها.

٥ – اتفق العلماء المتقدمون والمحدثون على أهمية السياق في تفسير كلام الله – عز جل – وأن إهماله موطن للزلل والخطأ في التفسير.

٦ – يتنوع السياق إلى أنواع مختلفة باعتبارات متنوعة، فهناك أنواع للسياق من حيث حدود الدلالة، وهناك أنواع للسياق من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص، وهناك أنواع للسياق من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي.

٧ – السياق القرآني له أثر عظيم في بيان المجملات، وتعيين المحتملات، وتخصيص العام، وتقييد المطلق.

٨ – يعتبر السياق القرآني من أهم الوسائل والطرق المعينة على دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.

٩ – مراعاة السياق من الأمور المهمة التي ينبغي أن يلتزم بها وأن يحتكم إليها من يُقدم على تفسير القرآن الكريم بالرأي.

١٠ – السياق له أثر عظيم في ضبط التفسير؛ وصون القرآن عن كثير من التفسيرات الباطلة والتأويلات الفاسدة ويردها.

١١ – السياق له أهمية كبيرة في توجيه معاني القراءات والترجيح بينها.

١٢ – يستخدم السياق القرآني في بيان صحة أو ترجيح رأي على آخر في أصناف علوم القرآن كالمكي والمدني، وإثبات النسخ أو عدمه.

١٣ – السياق القرآني له عظيم الأثر في إبراز وبيان المناسبات على اختلاف أنواعها.

١٤ – يعد الاعتماد على السياق القرآني من أبرز الطرق والمسالك التي سلكها العلماء في توجيه المتشابه، سواء كان سياق الآية، أو المقطع أو السورة.

١٥ – يعين السياق على تحديد معنى المشترك اللفظي، وتحديد مرجع الضمير، والمراد من حروف المعاني، والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء، كما يعين على تحديد أسلوب الكلام، وبيان المحذوف وتقديره ، وبيان أسباب التقديم.

١٦ – احتكَم المفسرون غالبًا للسياق القُرْآني؛ فكان مرجِّحًا وحاكمًا بين الأقاويل التفسيرية.

ثانياً: التوصيات:

في ختام هذا البحث أوصي أخواني الباحثين في مجال الدراسات القرآنية بما يلي:

١ – الاهتمام بدراسة هذا العلم تأصيلاً وتطبيقاً، وذلك لأهميته البالغة والتي كشف هذا البحث عن بعض جوانبها، ولما لهذا العلم من بالغ الأثر في تنقيح وتحقيق وتحرير لكثير من المسائل الشائكة والمختلف فيها.

٢ – دراسة كل آثر من آثار دلالة السياق المذكورة في هذا البحث، وإفرادها ببحث مستقل يجمع بين النظرية والتطبيق.

٣ – كتابة بحوث حول أثر دلالة السياق في إبطال التفسير المنحرف للنصوص الشرعية؛ بحيث يتناول كل بحث أحد الأفكار الضالة كالفكر الاعتزالي، أو الإرجائي، أو الحداثي، أو العصراني وغيرها.

٤ – إبراز عناية المفسرين بالسياق، وذلك بدراسة التفاسير المختلفة لنظهر للناس إلى أي مدى اعتمد أصحاب هذه التفاسير على السياق، وكيف استعملوها في بيان المعاني والترجيح بين الأقوال .

فهرس المصادر والمراجع

١ – الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي لعلي بن عبد الكافي السبكي، ط: دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٢ – أبيات مختارة من القصيدة النونية لابن القيم، ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.

٣ – إتقان البرهان في علوم القرآن للدكتور فضل حسن عباس، ط: دار الفرقان، ط١، ١٩٩٧م.

٤ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥ – أثر السياق القرآني في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة رسالة دكتوراة للباحث محمد الربيعة.

٦ – الأحاديث المختارة للضياء المقدسي، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٧ – إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد، ط: مطبعة السنة المحمدية.

٨ – أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٩ – أحكام القرآن للجصاص، المحقق: محمد صادق قمحاوي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٠ – أحكام القرآن للكياالهراسي، المحقق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١١ – الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن الآمدي، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، ط: المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– لبنان.

١٢ – اختلاف السلف في التفسير بين التنظير والتطبيق لمحمد صالح محمد سليمان، ط: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٠ه.

١٣ – إرشادات السياق في فهم الخطاب القرآني "دراسة أصولية" للدكتور بختيار نجم الدين شمس الدين، ط: مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، العدد١، المجلد١، إبريل ٢٠١٥م.

١٤ – أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

١٥ – أسباب النزول للواحدي، ط: دار الإصلاح – الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٦ – الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد بن محمد أبي شهبة، ط: مكتبة السنة، ط٤.

١٧ – الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد السلام، ط: المطبعة العامرة، ١٣١٣ه.

١٨ – الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق لمحمد نور الدين، ط: دار الفكر المعاصر ـــ بيروت، ط١، ١٤١٩ه ـــ ١٩٩٩م.

١٩ – الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود

وعلى محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٠ – أضواء البيان للشنقيطي، ط: دار الفكر ــ بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٢١ – الإمام في بيان أدلة الأحكام لعز الدين بن عبد السلام، المحقق: رضوان مختار بن غربية، ط: دار البشائر الإسلامية – بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٢٢ – الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، ط: دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٢٣ – أنواع السياق في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية للدكتورة آمال السيد محمد الأمين، بحث منشور بمجلة جامعة الناصر، العدد السابع، يناير ــ يوليو ٢٠١٦.

٢٤ – الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات، ط: دار المنارة ــ جدة، ط١، ١٤٠٦ه ــ ١٩٨٦م.

٢٥ – البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، ط: دار الكتبي، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٢٦ – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، المحقق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٧ – بدائع الفوائد لابن القيم، ط: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٨ – بدع التفاسير لعبد الله محمد صديق الغماري، ط: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط٢، ١٤٠٦ه ــ ١٩٨٦م.

٢٩ – البرهان في أصول الفقه لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبي المعالي، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٣٠ – البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، ط: دار الفضيلة.

٣١ – البرهان في علوم القرآن للزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٣٢ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى، المحقق: محمد علي النجار، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٣٣ – البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني للدكتور تمام حسن، ط: عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٣ه ـ ١٩٩٣م.

٣٤ – البيان في مباحث من علوم القرآن للعلامة الدكتور عبد الوهاب عبد المجيد غزلان، ط: مطبعة دار التأليف.

٣٥ – تاج العروس للزبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية.

٣٦ – تاريخ الثقات للعجلي، ط: دار الباز، ط١، ١٤٠٥هـ–١٩٨٤م.

٣٧ – التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري، ط: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

٣٨ – تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، المحقق: إبراهيم شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٣٩ – التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، المحقق: محمد حامد الفقي، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤٠ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر ــ تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٤١ – الترجيح بين دلالة السياق وسبب النزول لمحمد أبي زيد، ط: مجلة جامعة دمشق، العدد٢٨، المجلد ٣+٤، ٢٠١٢م.

٤٢ – التسهيل لعلوم التنزيل لان جزي الكلبي، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، ط: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٣ – التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، ط: دار عمار، ط٤، ١٤٢٧ه ــ ٢٠٠٦م.

٤٤ – تعجيل المنفعة لابن حجر العسقلاني، المحقق: د. إكرام الله إمداد الحق، الناشر: دار البشائر ــ بيروت، ط١ ــ ١٩٩٦م.

٤٥ – التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان للألباني، ط: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٤٦ – تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، المحقق: جلال الأسيوطي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٨ م

٤٧ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المحقق: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٨ – تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط: دار الوطن، الرياض – السعودية، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

٤٩ – تفسير القرآن لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، ط: دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، سنة ١٤١٩هـ.

٥٠ – التفسير القيم لابن القيم، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، ط: دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٥١ – تفسير المراغي، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

٥٢ – تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥٣ – تفسير آيات الأحكام لمحمد علي السايس، المحقق: ناجي سويدان، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

٥٤ – تفسير مقاتل بن سليمان، المحقق: عبد الله محمود شحاته، ط: دار إحياء التراث – بيروت، ط١ – ١٤٢٣هـ.

٥٥ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

٥٦ – الثقات لابن حبان، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، ط: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ط١، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م.

٥٧ – جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ه.

٥٨ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط١، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

٥٩ – الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، ط: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٢٧١هـ – ١٩٥٢م.

٦٠ – الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي، المحقق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

٦١ – حاشية البناني على جمع الجوامع، ط: مصر، ١٩١٦م.

٦٢ – الدر المنثور للسيوطي، ط: دار الفكر – بيروت.

٦٣ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١ هـ – ١٩٩١م.

٦٤ – دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط١٢، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٦٥ – دراسات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل، ط: دار المنار، ط٢، ١٤١٩هـ–١٩٩٩م.

٦٦ – دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي، ط: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز – جدة، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٦٧ – دلالة السياق القرآني في تفسير أضواء البيان للعلامة الشنقيطي دراسة موضوعية تحليلية للباحث أحمد لافي فلاح بطي المطيري، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.

٦٨ – دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال ابن جرير الطبري لعبد الحكيم القاسم، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٣٢٠هـ.

٦٩ – دلالة السياق رسالة دكتوراة، إعداد الباحث ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى.

٧٠ – دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم لعبد الوهاب أبي صفية الحارثي، ط١، ١٤٠٩هـ.

٧١ – دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام دراسة نظرية تطبيقية، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن مقدمة من الباحث فهد الشتوي، ١٤٢٦هـ ـــ ٢٠٠٥م.

٧٢ – دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ط: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ ـــ ١٩٩٢م.

٧٣ – ديوان أبي طالب عم النبي ـــ صلى الله عليه وسلم، جمعه وشرحه: الدكتور محمد التونجي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـــ ١٩٩٤م.

٧٤ – ديوان عنترة بن شداد، ط: مكتبة الآداب، بيروت، ١٨٩٣م.

٧٥ – الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل، المحقق: صبري بن سلامة شاهين، ط: دار الثبات للنشر والتوزيع، ط١.

٧٦ – الرسالة للشافعي، المحقق: أحمد شاكر، ط: مكتبه الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.

٧٧ – روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن للشيخ محمد علي الصابوني، طبع على نفقة: حسن عباس الشربتلي، ط: مكتبة الغزالي – دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، ط٣، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م.

٧٨ – روح المعاني للألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٧٩ – روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن قدامة المقدسي، ط: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م.

٨٠ – زاد المسير لابن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، ط١– ١٤٢٢هـ.

٨١ – سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١.

٨٢ – سنن الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٨٣ – السنن الكبرى للبيهقي، المحقق: محمد عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

٨٤ – السنن الكبرى للنسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٨٥ – السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي للدكتور: المثنى عبد الفتاح محمود، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١م.

٨٦ – السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إعداد الباحث: عبد الرحمن عبد الله سرور جرمان المطيري، ١٤٢٩هـ ـــ ٢٠٠٨م.

٨٧ – السياق القرآني وأثره في التفسير لعبد الرحمن عبد الله سرور،

٨٨ – السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة سعيد محمد الشهراني: وهي رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لجامعة أم القرى.

٨٩ – السياق غير اللغوي وأثره في توجيه المعنى في تفسير ابن عطية لصالح هزلة، مذكرة تخرج معدّة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة العربية.

٩٠ – سير أعلام النبلاء للذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٩١ – شرح الإلمام بأحاديث الأحكام لابن دقيق العيد، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: محمد خلوف العبد الله، ط: دار النوادر، سوريا، ط٢، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

٩٢ – شرح تنقيح الفصول لأبي العباس شهاب الدين القرافي، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، ط: شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط١، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

٩٣ – شواذ القراءات لأبي عبد الله محمد بن أبي نصر الكرماني، ط: مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان.

٩٤ – الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس، ط: محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.

٩٥ – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٩٦ – صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان البُستي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٤ه– ١٩٩٣م.

٩٧ – صحيح الإمام مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٩٨ – صحيح البخاري، ط: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه– ١٩٨٧م.

٩٩ – الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ياسين، ط: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة– المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٠٠ – الصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م.

١٠١ – طرق الكشف عن مقاصد الشارع للدكتور نعمان جغيم،

١٠٢ – علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية للدكتور فريد عوض حيدر، ط: مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠٣ – علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه للدكتور عدنان محمد زرزور، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠١ه ـ ١٩٨١م.

١٠٤ – غريب القرآن لابن قتيبة، المحقق: أحمد صقر، ط: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٠٥ – فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ه، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

١٠٦ – فصول في علم الدلالة لفريد عوض حيدر،

١٠٧ – فضائل القرآن لابن الضريس، تحقيق: غزوة بدير، ط: دار الفكر، دمشق – سورية، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

١٠٨ – فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، ط: دار ابن كثير (دمشق – بيروت)، ط١، ١٤١٥هـ –١٩٩٥م.

١٠٩ – الفوز الكبير في أصول التفسير لأحمد بن عبد الرحيم المعروف بـولي الله الدهلوي، ط: دار الصحوة – القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

١١٠ – القرآن والتفسير العصري لبنت الشاطئ

١١١ – قواعد الترجيح لحسين الحربي، ط: دار القاسم الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه ـ ١٩٩٦م.

١١٢ – الكشاف للزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣ – ١٤٠٧هـ.

١١٣ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت.

١١٤ – لسان العرب لابن منظور، ط: دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١١٥ – اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان عمر، ط: عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١١٦ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت.

١١٧ – مجموع الفتاوى لابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١١٨ – المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني، ط: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١١٩ – المحلى بالآثار لابن حزم الظاهري، ط: دار الفكر – بيروت.

١٢٠ – مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب، ط: مطبعة كردستان العلمية ـ القاهرة، سنة ١٣٢٦ه.

١٢١ – مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، ط: مكتبة المتنبي، القاهرة.

١٢٢ – المستدرك لأبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١ه – ١٩٩٠م.

١٢٣ – مسند أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.

١٢٤ – المشترك اللفظي في الحقل القرآني للدكتور عبد العال سالم مكرم، ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط١، ١٤١٧ه ــ ١٩٩٦م.

١٢٥ – مشكل القرآن الكريم لعبد الله بن حمد المنصور، ط: دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٦ه.

١٢٦ – مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، ط: مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

١٢٧ – المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي، المحقق: حاتم صالح الضامن، ط: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٢٨ – معالم التنزيل للبغوي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

١٢٩ – معاني القرآن للفراء، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط١.

١٣٠ – معاني القرآن وإعرابه للزجاج، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٣١ – معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٣٢ – المعجم الكبير للطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٢.

١٣٣ – المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، ط: دار الدعوة.

١٣٤ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

١٣٥ – مفاتيح الغيب للرازي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣ – ١٤٢٠هـ.

١٣٦ – مقدمة درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٣٧ – مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ط: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٣٨ – ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٣٩ – مناهل العرفان للزرقاني، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣.

١٤٠ – المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني، ط: المكتبة الأزهرية للتراث.

١٤١ – منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، ط: دار ابن حزم، حققه وقدم له: د. شعبان محمد إسماعيل، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٤٢ – الموافقات للشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٤٣ – الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، المحقق: د. محمد عبد السلام محمد، ط: مكتبة الفلاح – الكويت،١٤٠٨هـ.

١٤٤ – النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى

فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، ط: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٤٥ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، المحقق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط: مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٤٦ - نظرية السياق "دراسة أصولية" للدكتور نجم الدين قادر كريم الزنكي، ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٤٧ - نظرية السياق دراسة تأصيلية دلالية نقدية، للباحث المثنى عبد الفتاح، ط: دار وائل، الأردن، ط٢٠٠٨،١م.

١٤٨ - النكت والعيون للماوردي، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

١٤٩ - نواسخ القرآن لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: أبو عبد الله العاملي السّلفي الداني بن منير آل زهوي، ط: شركه أبناء شريف الأنصاري - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٥٠ - الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد عثمان، ط: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

١٥١ - الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين دراسة بلاغية في التراث العربي سامي بن عبد العزيز بن علي العجلان، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

فهرس الموضوعات

الملخص ١١٤
مقدمة ١١٧
المبحث الأول : مفهوم السياق القرآني، وأهميته. ١٢١
المطلب الأول : تعريف السياق القرآني في اللغة والاصطلاح: ١٢١
المطلب الثاني : أهمية السياق القرآني ١٢٧
أولاً : السياق من تفسير القرآن بالقرآن ١٢٧
ثانياً: السياق ركن من أركان الإعجاز القرآني ١٢٨
ثالثاً : إعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – لدلالة السياق، واعتباره لها في التفسير. ..١٢٩
رابعاً : إعمال السلف لدلالة السياق، واعتبارهم لها في التفسير ١٣١
خامساً: أقوال العلماء في بيان أهمية السياق. ١٣٥
المبحث الثاني : أنواع السياق القرآني ١٤٢
أولاً: أنواع السياق من حيث حدود الدلالة. ١٤٢
ثانياً : أنواع السياق من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص : ١٥٦
ثالثاً: أنواع السياق من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي: ١٥٨
المبحث الثاني ١٦٥
آثار دلالة السياق القرآني في التفسير ١٦٥
١ – بيان المجمل : ١٦٥
٢ – الترجيح بين الأقوال المحتملة في التفسير. ١٦٨
٣ – تخصيص العام : ١٧١
٤ – تقييد المطلق : ١٧٤
٥ – دفع إيهام الإشكال في القرآن الكريم ١٧٦
٦– يضبط التفسير بالرأي ويمنع من تأويل النص تأويلا غير سائغ..... ١٨٠

٧ – الترجيح بين معاني القراءات وتضعيف بعض القراءات أو ردها ١٨٣
٨ – معرفة المكي والمدني ١٨٧
٩ – إثبات دعوى النسخ أو عدمه ١٩٠
١٠ – بيان المناسبات على اختلاف أنواعها. ١٩٥
١١ــ تحديد مواضع الوقف والابتداء الصحيحة. ١٩٨
١٢ – تحديد معنى المشترك اللفظي ١٩٩
١٣ــ توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ٢٠٢
١٤ــ تحديد مرجع الضمير ٢٠٦
١٥ــ معرفة سبب التقديم، فأحد أسباب التقديم ما دل عليه السياق..... ٢٠٨
١٦ــ يعين السياق على بيان المحذوف، ويرشد إلى معرفة ما قدر في النص. ٢١٠
١٧ – تحديد أسلوب الكلام ٢١٢
١٨– تحديد المعنى المراد من حروف المعاني..... ٢١٤
١٩ – الترجيح بين أقوال الفقهاء في مسائل الأحكام..... ٢١٧
الخاتمة ٢٢٠
فهرس المصادر والمراجع ٢٢٣
فهرس الموضوعات..... ٢٣٩